الصحابى الجليل

أبو أيوب الأنصاري

عند العرب والترك والفرس

د. حسين مجيب المصري

الناشر

الدار الثقافية للنشر

ص.ب (134) بانوراما أكتوبر

تليفون وفاكس: 4027157 - القاهرة

أبو أيوب الأنصارى

عند العرب والترك

اسم الكتاب: الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى عند العرب والترك
اسم المؤلف: د. حسين مجيب المصرى
رقم الإيداع: ٩٨/١٣٢٩٥
الترقيم الدولى: 2-55-5875-977 I.S.B.N.
اسم المطبعة: المطبعة العصرية - بيروت
اسم الناشر: **الدار الثقافية للنشر**

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

الدار الثقافية للنشر - القاهرة
ص.ب 134 بانوراما اكتوبر - هاتف وفاكس 4027157
email: sales@thakafia.com

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء

إلى من أيقن أن الدين الحنيف هو
القِوام الحق لوحدة المسلمين ،
فشاقته الرغبة إلى أن يتبين عند شعوبهم
معالم تلك الوحدة ما ظهر منها وما استتر .

مقدمـــة

فى كتابى هذا ، دأبت دأبى فى عدة كتب لى أخرى ، فما طرحت عن عنقى أمانة طوقته بها منذ أعوام طوال . ولا كففت خطتى عن المضى فى طريق طويلة تفضى بى إلى المنشود من غايتى ، ألا وهى عقد الصلات بين شعوب الإسلام ، فى دراسات تربط المعلول بعلته وترد الفرع إلى أصله ، مع تمحيص للحقائق واستقصاء للأطراف وجمع للأشتات ، ثم الخروج من ذلك كله بتمثل صورة واحدة فى متكامل متشاكل من سماتها.

فحسبنا نظرة فيما خلفت الشعوب الإسلامية من أفانين تراثها ، لنتبين بالدليل الأكيد الذى لا يحتمل من شك ولا تأويل ، أن الدين الحنيف جعل المسلمين أجمعين أشبه شئ بالجسد الواحد بعضهم من بعض، وهذا ما نجزم به ونستشفه لديهم من الظواهر والبواطن.

فبعد أن نضح الله على قلوبهم فيض الإيمان ، هامت أرواحهم فى آفاق تعددت إلا أنها توحدت . وجمع الدين شملهم فتساندوا فى تمسكهم بعروته ، وأصبح علة العلل فى جعل شعوبهم على صلة ، وبفضله التقت على تباين أجناسها وألسنتها فى مساواة مطلقة.

ومن حيث كان الدين قوام الدنيا والآخرة ، كان جلىّ المظهر فى كل جانب من جوانب حياة هاتيك الشعوب ، وبالتالى اتصلت وشائج وحدة العقيدة بكل ما خطر على قلوبهم ونطقت به ألسنتهم ورقمته أقلامهم.

وليس من عجب بعد هذا أن نجد حشداً زاخراً من ألفاظ لغة القرآن والحديث فى اللغة الفارسية مثلا . فلما فتح الله على العرب فارس ودخل الفرس فى دين الله أفواجا، كان حتما لازما أن يعرفوا لغة الدين ، فتوفروا على دراستها حتى ملكوا ناصيتها ، وتأتى لهم بذلك أن يفهموا كلام الله جلّ وعز وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، ثم خرجوا عن فارسيتهم خروج العرب عن عربيتهم ، ليدخلوا جميعاً فى قومية لا عهد لهم بمثلها فى سالف الدهر وهى القومية الإسلامية .

وغلبت النزعة الدينية عند الفرس على كل نزعة سواها حتى النزعة القومية التى أحيوها بعد قرنين من الزمان أو ما يقرب ، واتخذوا شعاراً لها من بعث لغتهم التى كان قد أعجزها أن تبقى إلى جانب لغة العرب ، فرجحت العربية لغة الدين على الفارسية لغة القومية ، واستعار الفرس للغتهم ما لا يحصى كثرة من العربية . ولنا أن نقول إن هذه الظاهرة خلعت على لغة الفرس طابعاً يؤكد تبعيتهم لسلطان الدين الذى لم يكن عظيم التأثير فى عقيدتهم ليس إلا ، بل فى لغتهم وثقافتهم التى طوّع الدين أصولها وفروعها لأن تكون وسائل المسلم إلى تفهم الدين وتعرف أوامره ونواهيه.

والشأن عند الترك كمثله عند الفرس إن كان بين هؤلاء بعض وجوه للتخالف . فقد أسلم الترك وحسن إسلامهم ، ووقفوا عند حدود الدين وظاهر كتاب الله ، وما أظهروا ما أظهر الفرس من ميل إلى الاجتهاد بالرأى وابتداع المذاهب ، كما عرفوا بتسامحهم مع من خالفوهم فى مذهبهم . أما محاربتهم للشيعة فيما تلا من عصور ، فمردود إلى الرغبة فى تحقيق مآرب سياسية . وبعض المذاهب التى أخذت بها قلة منهم ، إنما كانت دخيلة عليهم وفدت إليهم من الفرس . منبثقة من عزمهم على إحياء قوميتهم ، فوجدوا فى الدين ما يستر نيتهم ويخدم سياستهم وينجح مسعاهم.

وما كان للترك قومية كقومية الفرس الكسروية ليحاولوا بعثها ، بل استجابوا لما أوصى به دينهم الحنيف ، فرأوا أن أول شئ وأوجبه عليهم أن يذودوا عن فكرهم كل معنى للعصبية والجنسية مخلصين الدين لله ، وتجلت النزعة الإسلامية فى سياسة سلاطينهم وحياة شعبهم .

فهذا سلطانهم الأول عثمان يجعل الإسلام أساساً لأصول الحكم فى دولته ويضرب المثل الأروع لتسامح المسلم فى دعوته المسلمين والمسيحيين على سواء إلى مائدته . ولما غشيته غمرة الموت قال لولده أورخان :

(لتجعل هذا العالم بالعدل والقسطاس معموراً ، ولتفعم قلبى بجهادك فى سبيل الله حبورا . ابذل وسعك كله فى طريق الجهاد ، وسس القوم بالعدل فى البلاد . وابسط على العلماء جناحاً للرعاية ، كيما يستقيم أمر الشريعة إلى الغاية . وحذار من زهوك بما لك وجندك ، ولا تبعد أهل الشرع الشريف عنك . بالشرع وحده الملك يستتب ، فكل ما خالف الشرع اجتنب . دين الله ما نحن طالبون ، وطريق الهدى ما نحن سالكون)(١) .

ولم يضيع الابن وصية أبيه ، ولا استن الخلف من السلاطين بغير سنة السلف . وعاهد الترك الله على أن يكونوا المحاربين دفاعاً عن حوزة الدين ،وما نكثوا عهدهم إلى العصور المتأخرة ، وما تاهوا بذلك ولا استكبروا ، ولا غلبتهم نشوة من يختالون بأنهم حماة الإسلام ، بل طابت نفوسهم بأن يكونوا المجاهدين فى سبيل الله .

---

(١)

عـد الله بو عــالمى آباد قيـــل	رسم جهـاد ايله بنى شــاد قيل
راه جهــاد ايچره ايدوب اجتهاد	مملكت رومـده قـيل عـدل وداد
ايله رعـايت علمــايى تمــــام	تاكه بـوله أمر شريعـت نظـام
عسـكر ومـال ايله غرور ايلمـه	شرع شـريف اهلى دور ايلـمـه
شرعـدر مايهء شــاهى وبس	شرعه مخالف ايشه ايتمـه هـوس
مطلبـمـز دين خـدادر بيــزم	مسلكـمز راه هــدادر بـــيزم

ومنذ القرن الثالث الهجرى خرج الأمر من أيدى العرب ليدخل فى أيدى الترك التى قبضت على أرمة الأمر عند المسلمين لتكون المصائر طوعاً لها . قيل إن أحداً من خواص السلطان محمود الغزنوى كان إلى جوار فراشه وقد نزلت به غشية الموت فقال له: (منذا الذى يحمى حمى الإسلام بعدك ؟) فكان جواب السلطان عليه: (ومن أنا حتى أستطيع حماية الإسلام ؟ إنما يحمى الإسلام الله القادر المتعال).

وأعد الترك ما استطاعوا من قوتهم لنصرة الدين، وتدفقت جحافلهم تدفق السيل من وسط آسيا إلى الثغور الإسلامية لدفع أعدائه عنها، ودامت على ذلك حالهم عصوراً تطاولت[١].

ويقص علينا التاريخ أن خطيب المسجد فى أول خطبة خطبها للسلطان سليم الأول قال عنه إنه مالك مكة والمدينة ، فساء ذلك السلطان الذى أسكته وأمره أن يعده خادماً لهاتين المدينتين لا مالكا لهما . ومنذئذ أطلق هذا اللقب على سلاطين العثمانيين[٢].

وفى عام ٩٢٧ للهجرة حين أخذ السلطان سليمان القانونى أهبته لفتح حصن بلغراد الحصين ، وحاصره جنده حتى وقعت الكسرة والهزيمة على من اعتصموا فيه ، قال الكاتب التركى القديم لامعى إن جنود الإسلام حققوا نصرة حطمت قلوباً لأعداء الدين وأبهجت قلوباً للمؤمنين[٣].

وكان القاضى فى مصر العثمانية يأتمر على الدوام بأوامر رئيسه فى استانبول الذى يحذره الحذر كله من أن يحيد فى أحكامه قيد أنملة عن الشريعة الإسلامية . ولما استوثق الأمر للأتراك العثمانيين فى الأناضول ، كانت تلك البلاد ممتلئة الأرجاء بالزوايا والتكايا ، فقد مال القوم إلى التزهد والتعبد ملتمسين بذلك مخرجاً ومهرباً من دنياهم التى وقعت فى قلوبهم كراهتها ، بعد أن كابدوا ما كابدوا من غزوات المغول فدهمتهم الكوارث ودهتهم الحوادث ، ورأوا من الخير أن يقطعوا ما بينهم وبينها من أسباب ، ويعرضوا عن مفاتن لها إلى فناء ، فرقت قلوبهم للتقوى وتفتحت لروحانية التصوف.

واتفق أن رأس متصوفة الفرس وأعظم شعرائهم جلال الدين الرومى نزح عن بلاده إلى الأناضول حيث استقر به المقام فى مدينة قونية ، فتحلق حوله المريدون يسمعون منه ويأخذون عنه ، فذاع الصوفى فى البلاد طولا وعرضاً ، وخلفه ولده فى نشر طريقته المعروفة بالطريقة المولوية التى استوجبت منه أن ينظم كتاباً بعنوان (رباب نامه) أى كتاب

(١) كوپريلى زاده محمد فؤاد : تورك ادبياتى تاريخى . ص١١٦ (استانبول ١٩٢٦).
(٢) چانتاى (ت) نوروزى : فرهنگ اسلامى در نواحى ترك نشين.
(٣) لا معى : ترجمة نفحات الأنس جامى . ص٩ (استانبول).

الرباب يعد باكورة الشعر التركى العثمانى ، وفيه التزم منهجاً تعليمياً ليشرح به تعاليم طريقته الصوفية . وإن دل ذلك على شئ ، فهو أكيد الدلالة على أن النزعة الدينية تأصلت فى الروح التركية منذ أول عهد التاريخ بها ، وسمت إلى الأوج ببلوغها آفاق التصوف . وما كان التصوف بسبحاته وجذباته وإغرابه وإغماضه وتأويله ، وتمثيله للخواص من القوم ليس إلا ، بل غمر كذلك نفوس سواد الناس ، ومنهم من لا يكتب ولا يحسب ، وكانت بواكير الشعر التركى أصدق ما يكون فى تعبيرها عما ماجت به حياة الترك الروحية .

وهنا نلمح آصرة وشجت بين الترك والفرس تدفعنا إلى تجاوز الإجمال إلى شئ من التفصيل ، فقد رأينا أن جلال الدين الرومى أعظم شعراء الصوفية عند الفرس كان صاحب الفضل فى نشر طريقة الصوفية بين الترك ، وكيف أن ولده المعروف بسلطان ولد أراد أن يعلم الناس ما لم يعلموا من طريقة أبيه فنظم كتاباً ، وبه انبثق الأدب التركى فى الوجود.

ونحن واجدون فوق ذلك أن العثمانيين فى الأناضول كانوا ورثة السلاجقة فى ملكهم وتراثهم الثقافى ، وكانت الفارسية لغتهم الرسمية ، وبلغت آدابها فى الازدهار شأواً بعيداً، مما أفضى إلى دخول ما لا يقع تحت حصر من ألفاظ الفارسية وتراكيبها على التركية. ولما كانت الفارسية من قبل زاخرة بكثرة كاثرة من الألفاظ العربية ، وجدت العربية سبيلها إلى التركية مع الفارسية ، فأصبحت لغة الترك مزيجاً من لغات ثلاث هى لغات التراث الإسلامى فى أصوله وفروعه .

وقال من وصف تلك الظاهرة متبسطا ، إن العربية والفارسية والتركية تبدو كأنها لهجات ثلاث للغة واحدة هى لغة الأدب الإسلامى[(١)].

ويجرى مع هذا فى نسق ، أننا إذا عمدنا إلى كتاب تركى من كتب النثر الفنى، وقرأنا منه سطوراً على تركى لا يحذق العربية ولا الفارسية، أو فارسى يجيد لغته وحدها، أو عربى متضلع من العربية، لوجدنا أن ثلاثتهم لم يفقهوا مما تلونا عليهم شيئاً، مما يدل على أن لغة العثمانيين تتشكل من ثلاث اللغات[(٢)] وذلك ما أوجب على علماء الترك وبلغائهم أن يعرفوا العربية والفارسية إلى جانب التركية، فاكتملت لديهم عناصر الثقافة الإسلامية.

وهنا نعرف الصلة الوثقى بين العرب والفرس والترك ، بعد ما عرفناه وتيقنا صحته وأهميته من صلة الدين. ولو ذهبنا نتلمس ظواهر تتجلى فيها تلك الصلات بتشعب وشمول

(1) Menzel : Die turkische Literatur, Die orientalischen Literaturen. 289-290 (Berlin 1925).
(2) Hachtmann L Europaische Kultureinflusse in der Turkei s. 9 (Berlin 1918).

وسعة ، لوجدناها فى شخصية عظيمة لأحد رجالات الإسلام هو أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه من صحابة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وهو بين العرب والترك على الأخص ، صلة موصولة لوحدة الإيمان ، وجامع مشترك تتعلق به وشائج الدين الحنيف ، وعنده تلتقى الأمتان فى وارف من ظلال لراية الإسلام التى خفقت خفوق القلوب المؤمنة فى آفاق وآفاق . فأبو أيوب من صحابة الرسول، إلا أنه متميز عن كثير منهم بأنه أحد الذين بايعوه ليلة العقبة ، وشهد المشاهد كلها والفتوح وداوم الغزو . وفى داره كان نزوله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ، فأقام عنده شهراً حتى ابتنى مسجده ومساكنه حوله ، وقد استخلفه على كرم الله وجهه على المدينة لما قصد إلى العراق ، وخرج لقتال الخوارج مناصراً مشايعاً . وقضى العمر فى سبيل الله مجاهداً ، فجاهد المشركين حياة النبى ، ثم الروم فى مصر وقبرص والقسطنطينية إلى أن قضى نحبه تحت سورها على عهد معاوية عام خمسين للهجرة . كما أنه إلى هذا ممن حملوا أمانة السنة فروى عن النبى من الأحاديث ما شاء الله أن يروى.

وإذا ما رجعنا إلى سيرته فى الكتب العربية ، وتوسمناها بنظرة من أراد سبرا للغور والخروج بحكم ، لوجدنا جمهرة تلك الكتب تدير الكلام عليه ولكن فى نطاق محدود ، وكأنما تناقلت سيرته عن مصدر واحد ، وقد يغنينا تصفح كتاب عن تصفح آخر ليس فيه من مزيد ولا جديد . وما نكاد ندرك منها أنه كان صحابياً لا كالصحابة ، ومجاهداً يشبه المجاهدين فى كثير ، وإن كنا لا نشبهه بسيف الله المسلول كقائد له منزلته فى الطليعة.

وعلى حد علمنا ، لا نعرف له فى كتب الفرس منزلة خاصة ، فما نكاد نجد له عند الشيعة منهم رفعة ، وهو الذى وصل أسبابه بأسباب على كرم الله وجهه فكان من أشياعه الذين وطنوا أنفسهم معه على جهاد الخوارج ، فأمره على عسكره . وأبلى أبو أيوب بلاء حسنا فى المنازلة والمجاولة . كما اصطفاه والياً له على المدينة لما مضى إلى العراق . وإن كنا لا نطلب المجال لنوازن بينه وبين سلمان الفارسى فى صلته بعلى .

وغير شك أنه بلغ عند الترك من سمو القدر وجلالة المنزلة وعظم الشأن واتساع الشهرة شأوا يتعسر أو يتعذر معه علينا أن نجد ما يضاهيه ويدانيه عند العرب والفرس فهم يسمونه (أيوب سلطان) وسلطان لقب يطلق على قلة من أعاظم الصوفية ، ويستفاد من معناه أن عظيم الصوفية له من المنزلة فى العالم الروحانى ما للسلطان الحاكم فى العالم الجسمانى . وكأنهم لم يهتدوا إلى لقب للتقدير والتوقير أشرف من هذا كيما يعبروا به عن إجلالهم لشأنه ، وإن لم يكن أبو أيوب من التصوف فى كثير ولا قليل .

ويقول عنه أقدم مؤرخ أوربى للدولة العثمانية إنه الأعلى فى المقام والأجدر بالإجلال والاحترام بين ثمانية أبطال ضربوا الحصار على القسطنطينية[1].

وهذا سلطان الترك محمد الثانى فاتح القسطنطينية يعرف من كتب التواريخ أن قبره بموضع قريب من سورها ، فيرغب إلى شيخ من حملة الحجة وأهل الورع والتقوى أن يعين موضع القبر ، فيقرأ الشيخ الأوراد والسلطان أمامه على ركبتيه ، ويظهر رخام عليه خط يدل على أن مرقد أبى أيوب تحته ، فيتحير السلطان وتغلب عليه الحال ، فلا يتماسك ويكاد يسقط لولا أن بادر إليه من أمسكه أن يسقط . وسرعان ما يأمر ببناء قبة على القبر ومسجد[2].

ودرج من خلفه من سلاطين العثمانيين يوم يتربعون فى دست الملك ، أن يقيموا حفلا دينياً فى مسجد أبى أيوب ، حيث يتقلدون سيفاً للرمز إلى أن السلطنة أفضت إليهم.

وإذا كان الناس على دين ملوكهم كما يقولون ، فقد كان لأبى أيوب عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولى الله الذى تهوى إليه القلوب المؤمنة ليغمرها نور من بركاته ، وتذكره العقول الواعية لتعرف عنه أمهات الفضائل والرفيع الجليل من قيم الحق التى تجمعت لديه بوصف الكمال .

وليس من ريب فى أن ذلك مردود إلى أنه رضى الله عنه كان مضيف النبى صلى الله عليه وسلم . وتلك الضيافة علة العلل فى ذكره الذى رددته ألسنتهم وتضمنته صفحاتهم ، لأنه أكرمه وأعانه فى وقت العسرة . والترك من هم فى صفاء تسننهم وفرط محبتهم لنبيهم .

وأبو أيوب فوق ذلك مرموق المكانة بين المجاهدين ، وغاية الجهاد ضمانة ألا يفتن المسلمون عن دينهم ، وأن يعز الإسلام ويمتنع على الفتنة والأذى ، ويحفظ من عدوان أعدائه الظالمين ، والمجاهدين عن المسلمين أن تذهب ريحهم . فعرف الترك له هذا من فضله ، ولا غرو فقد أسلفنا أنهم نظروا إلى الجهاد نظرتهم إلى دعامة ركينة من دعائم الإسلام ، ووقاء لولاه لما قيض الله له البقاء على وجه الدهر .

ولقد يرجح ما نذهب إليه أن شعراء الترك الذين تبركوا بمدحه واحتسبوه عند الله ، إنما جعلوا تلك الضيافة وذلك الجهاد أعظم مناقبه وأظهر مآثره.

(1) Hammar - Purgstall : Geschichte des osmanischen Reiches. s, 99, Neunter Band (Graz 1963).

(٢) طا شكبرى زاده : الشقائق النعمانية ، ص ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٤٨ . على هامش ابن خلكان جـ١ (القاهرة ١٢٩٩).

وحقيق بالذكر أن منهم شاعراً نظم بالعربية ، وهذا ما يرشد إلى بعض ملامح ومقومات ثقافة العثمانيين الأقدمين ، وهو ضرورة العلم بالعربية والقدرة على النظم بها فى الأحايين ، وتلك ظاهرة تعد بحق لقاء بين العرب والترك فى تراثهم الإسلامى ، كما أن ثناء الترك على هذا الصحابى وذكره بالجميل فى شعرهم يمكن أن يعد من مظاهر التكامل والتعادل ، لأن الترك امتدحوا أبا أيوب الذى مات فى أرضهم ، على حين لم يمدحه العرب وهو ابن جنسهم . وندرك من هذا الصنيع كذلك أن الإسلام ساوى بين أبنائه ، فما فضل أبناء جنس على أبناء آخر إلا بالتقوى ، ولا كان لقومية أو عصبية دخل فى أحقية طائفة بمدحه قبل أخرى . ولا كان حتما لازما أن يقدر ويوقر فى أرضه التى مس جلده أديمها ، بأعظم من تقديره وتوقيره فى تلك الأرض الغريبة التى انقضت أيامه تحت سمائها .

أما خاتمة القول فى علو منزلة الرسول ومضيفه عند سلاطين العثمانيين ورعيتهم ، وكيف أولوهما غاية التبجيل ، فلا نجد خيرا منها فى خبر يسانده الحق ويؤازره الصدق ، رواه الرحالة التركى أوليا چلبى وهو بصدد حديثه عن مصر(١) .

ويستخلص منه أن السلطان أحمد الأول المتربع على العرش عام ١٦٠٣ ميلادية ، قيل له إن قدم النبى صلى الله عليه وسلم على الحجر فى ضريح قايتباى بمصر ، وحقيق بمثل هذا الأثر فى قدسيته ونفاسته أن يكون فى مسجد السلطان . ولسرعان ما كتب إلى عامله على مصر مراد رئيس يأمره بالتعجيل فى إرسال ذلك الحجر إليه . وبعد شهور سبعة، أخبر السلطان ذات ليلة بوصوله ، فطلب التوجه به توا إلى ضريح أبى أيوب ، وعرف النبأ أهل استانبول ، فلما أصبحوا تزاحمت وتسابقت جموعهم كباراً وصغاراً رجالا ونساء إلى حيث يستقبلون الحجر الشريف . وفى موكب عظيم انطلق السلطان إلى الضريح ، وهناك مسح وجهه بذلك الحجر تبركا ووضعه على رأسه تعظيما وتقديسا ، ثم انطلق لسانه بهذين البيتين على البديهة :

(ما ضر لو جعلت من التاج البديل ، على الدوام أثر قدم الرسول . تلك القدم من روضة النبوة زهرتها ، هلم عجل يا أحمد ، مسّح وجهك بقدمها)(٢) .

وقيل إن أحد الموسيقيين لحن هذين البيتين وكان يترنم بهما فى ليالى رمضان .

(1) Evliya Celebi : Evliya Celebi Seyahatnamesi, ss 296-297. Onuncu Cilt (Istanbul 1938).

(٢) نوله تاجم كبى باشمده كوتورسم دايم ... قدمى رسمى درر حضرت شاه رسولك
كل كلزار نبوت او قدم صاحبيدر ... احمدا دورما يوزك سور قدمنه او كلك

وفى حشد زاخر من الداعين والمبتهلين ، حمل الحجر ليوضع فى موضعه من مسجد السلطان أحمد الأول .

كما ذكر أنه نقش مثالا للقدم النبوية على حلية عمامته ، وجعل لهذا الحجر حلية فضية نقشت عليها هذه الأبيات العربية التى قالها من قالها رغبة فى إظهار محامد السلطان ، والإشارة إلى أن الخير كل الخير ما صنع، بعد اعتزازه بأثر الرسول الكريم فى إجلال وإكبار، وغمره الترك فى أرضهم ببركاته ونفحاته :

تشوق حضرة السلطان أحمد زيارة موطئ القدم المكرم
فحركه بجاذبة اشتياق على إقدام أقدام فقدم
وسيّره إلى القسطنطينية فقال له تقدم خير مقدم
وأدخل داره باليمن حباً وتعظيماً لصاحبه المعظم
حبيب الله سيدنا محمد عليه ربنا صلى وسلم

وبعد فهذه دراسة أردت أن أخرج بها على قارئ العربية كعلم لا عهد له به من قبل، ومنهج لم يألفه ولم يعرفه فيما توجه إلى تحصيله وانقطع لطلبه، فسوف يجد أنه تلقاء بحث حاول فيه صاحبه جهد المستطاع أن يحيط علما بكل شاردة وواردة لها دخل فى تراث شعوب الإسلام ، بحيث يدرك الكليات عموما بعد أن يعرف الجزئيات خصوصا . ويقتدر على رد النتائج إلى مقدماتها وربط المسبب بسببه ، ويتمثل الصورة على أنها ملامح تعددت لتشكيلها ، ومقومات تكاملت لتبرز الظاهر من كيانها، وأحسب أن مثل ذلك المنهج يفى بالحاجة ويفضى إلى الغاية فيما تصديت له، فالتمست كل ملتمس يتأتى لى به أن أعالج بحثى على هذا النحو، ووجدت الأمر يقتضى وجوب التمهيد للحقيقة وربطها بمتعلقاتها رجاء تقريبها إلى الفهم فى نطاق من لوازمها وقرائنها ودعمت الدعوى بدليلها .

كما محصت الآراء، فأيدت منطقى المسلمات وما لا مراء فى صحته، وفندت ما تبين لى أنه فاسد فى العقل وسقط دليله وعدم حجته. وكان من اللازم الحتم أن أتعرض بالتعقيب والتصويب لقول من نطق عن الهوى أو التبس عليه الأمر فلم يصب شاكلة الصواب.

وكرهت لقارئى أن يفهم أخلاطا أو أن يصدق ما ليس منه على يقين فرأيت أن أسوق فى بعض المواضع كلاما مقصوداً بالعرض لا بالذات ما دامت الفائدة متصلة بذلك ولابد .

ولا عجب ، فأنا من صح عزمى على أن أطوف فى الأبعاد والأعماق بمن أراد أن يعلم عن شعوب الإسلام مالم يك يعلم .

ولقد نشدت مادة البحث فى كل ما استطعت إليه سبيلا من مظانها ، قديمها وحديثها شرقيها وغربيها، أما ما انقطعت إليه وسيلتى منها ، فأوقفنى بين اثنتين، إما اليأس منه وهو إحدى الراحتين، أو الأخذ منه بالواسطة مع الإشارة إلى ذلك فى موضعه. وضمنت هوامش الكتاب ما أوردت فيه من نصوص تركية وفارسية أخذاً بأصول الفن المرعية فى تأليف ما يشبهه من تآليف حتى يفيد المتخصص وغير المتخصص فى وقت معاً.

ورجائى الذى أبسطه إلى القوم الدارسين من أبنائى ، هو أن يسيروا راشدين فى خطوتى ، علهم أن يبلغوا مالم أبلغ من غاياتى .

دكتور حسين مجيب المصرى

الفصل الأول : عصر أبى أيوب وبيئته :

ليس من نافلة القول فى نظرنا ولا من قبيل الحديث المملول ، أن نمهد تمهيداً يطول أو يقصر ، لدراسة شخصية نترجمها ، بوصف عصرها وبيئتها وصفا يميز أخص الخصائص ويبين أبين السمات ، كما يتناول المعالم جليها وخفيها . فمن المعلوم أن بين الفرد وعصره وبيئته من وثاقة الصلة باتصال السبب وارتباط النسب ما ليس إلى تناسيه من سبيل . ومما يؤيد هذا ويؤكده ، أننا لو تجاوزنا البيئة المحيطة الخاصة إلى البيئة الإنسانية العامة ، لما كنا فى حقيقة الأمر إلا مستبدلين بالأضيق الأوسع ، خارجين بالفرد من جماعة بعينها إلى جماعات لا نحدد فى تعيينها . والعظيم الحق منسوب إلى هذا الخصوص وذاك العموم فى وقت معا . غير أننا نتجافى عن الصواب إذا أنكرنا أنه ابن الأولى الأقرب إليها ، له ما لها وعليه ما عليها ، وفى ملامح عبقريته ما يذكر بها ويرجحها على غيرها .

والشأن فى البيئة كالشأن فى العصر ، لأنه النطاق الزمنى للأحداث ، وما يقع فى عصر قد لا يقع فى سواه ، ومرور الزمن هو عامل التطور الذى يحكم الظواهر . وعليه فأولى بالبيئة والعصر ثم أولى بهما أن يكونا مناط اهتمام لدى دارسى الشخصيات ، ونحن لا نعدم وفرة من الأمثلة تؤيدنا فيما نذهب إليه ، غير أن ذكر هذا مما يطول ويتسع ، وحسبنا أن نشير إلى أن دراسة أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قد تعد أمثل مثال لذلك كما يستبين من السطور التوالى فى كتابنا هذا .

ولقد امتد الشطر الأول من عمر أبى أيوب فى عصر النبوة ، ذلك العصر الذى كان لأحوال العرب تبديلا وفى تاريخ الإنسانية تحويلا . فقد أرسل عزّ وجلّ رسوله الكريم ﷺ، وهو أفضل الخلق من سابق ولاحق ، ليكون للعالمين رحمة . وعن بعضهم فى تفسير قوله تعالى : **﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾** أنه محمد ، وقوله : **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾** ، أن هذه النعمة بمحمد ، وعن مجاهد فى قوله تعالى : **﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾** قال بمحمد وأصحابه[1] .

وأنزل الله الذكر إلى نبيه ليبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون، وما كان صحابته على مبلغ واحد من العلم ، وتفاوتوا فى الفهم ، فأقبلوا عليه يسألونه عما أشكل عليهم فهمه من القرآن، واشتد حرصهم على حفظ حديث النبى ﷺ وتعميم العلم به، وكان شاهد القوم يبلغ غائبهم، فشاع الحديث فى الناس وذاع. وقال الحافظ النيسابورى مانصه: روى الحديث عن النبى ﷺ من الصحابة أربعة آلاف رجل وامرأة صحبوه نيفا

---

(١) القاضى عياض : الشفاء ، ص١٥ و ١٥ (القاهرة ١٣١٨).

وعشرين سنة بمكة قبل الهجرة ثم بالمدينة بعد الهجرة ، حفظوا عنه أقواله وأفعاله ، ونومه ويقظته ، وحركته وسكونه ، وقيامه وقعوده ، واجتهاده وعبادته ، وسيرته ومغازيه ومزاحه وزجره ، وخطبته وأكله وشربه ، ومشيه وسكونه ، وملاعبته أهله وتأديبه فرسه ، وكتبه إلى المسلمين والمشركين وعهوده ومواثيقه . هذا سوى ما حفظوا عنه من أحكام الشريعة وما سألوه عن العبادات والحلال والحرام أو تحاكموا فيه إليه .

وحق الرسول ﷺ على الناس أن يطيعوه فى أوامره ونواهيه ويحافظوا على سنته ومراسمه ، هو القائل : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده ومن الناس أجمعين (١).

وكان لأقواله عليه الصلاة والسلام فى نفوس معايشيه ومعاصريه أثر أى أثر . كما زاد الشوق إلى حفظها والعلم بها فى الجيل التالى ، وبلغت الرغبة فيها منتهاها حتى عرفت بطلب العلم(٢).

ولا غرو ، فقد بعث الله نبيّه على فترة من الرسل ، بمعنى انقطاع منهم ، والعلماء مختلفون على أقوال عدة فى قدر تلك الفترة ، ونحن هنا أميل إلى ذكر قول الإمام فخر الدين الرازى فى هذا الصدد، فهو القائل إن القائل فى بعثه ﷺ عند فترة من الرسل ، إن التحريف والتغيير قد كان تطرق إلى ما تقدم من الشرائع لتقادم عهدها وطول زمانها، فاختلط الحق بالباطل والكذب بالصدق، وكان عذراً لمن أعرضوا عن العبادات (٣).

ولو حاولنا أن نثنى عليه الخير كله ، لحمنا وما وردنا وغنينا وما أطربنا ، لأن ذلك من وراء طاقتنا ومن فوق إمكاننا، ولكن من الخير أن نتمثله ﷺ فى صور شعرية عند شعراء ثلاثة يختلفون فى جنسهم ووطنهم ولسانهم، ويتفقون فى إسلامهم وإيمانهم .

أما أولهم فالبوصيرى صاحب «البردة» وهى أهم المدائح النبوية وأسيرها وأشهرها ، كما كانت مصدر وحى لكثير ممن مدحوا الرسول بعد(٤) وقد نظمها فى القرن السابع الهجرى، وجاء فيها قوله :

كالشمس تظهر للعينين من بعد — صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته — قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر — وأنه خير خلق الله كلهم

(١) الخوارزمى : مفيد العلوم ، ١٩٥ (القاهرة ١٩٠٩).

(2) Guillaume : The Traditions of Islam, pp. 11, 12 (Oxford 1924).

(٣) الخازن : تفسير الخازن ، ص٤٤٣ جـ١ (القاهرة ١٩٢٨).

(٤) د. زكى مبارك : المدائح النبوية فى الأدب العربى ، ص١٤١ (القاهرة ١٩٣٥).

أكرم بخلــق نبى زانــه خلــق   بالحسـن مشتمل بالبشـــر متسم
كالزهر فى ترف والبـدر فى شرف   والبحر فى كرم والدهــر فى همـم
كأنه وهـو فـــرد فى جـــلالته   فى عسكر حين تلقاه وفى حشـم

والثانى هو الشاعر الفارسى فريد الدين العطار المتوفى فى القرن السابع الهجرى ، ولم يمدح بشعره كائناً من كان[١] غير أنه مدح النبى عليه الصلاة والسلام فى منظومات تسمى (نعت) ألف شعراء الفرس والترك أن يمهدوا بها لدواوينهم . وله منظومة صوفية رمزية بعنوان (منطق الطير) ، جاء فى المدح الممهد لها قوله من مائة وأربعة وأربعين بيتاً[٢] .

(إنه شمس الشرع وفلك اليقين، وضياء العالم ورحمة للعالمين. أعظم الأنبياء وأمثلهم ، وللأصفياء والأولياء دليلهم . لا يبعث سواه إلى يوم يبعثون ، إنما كان للناس أجمعين . لقد حل كل مشكل لنا ، فما ساور الشك من بعد قلبنا)[٣] .

وثالثهم الشاعر التركى وهبى المتوفى عام ١٨٠٩م ، وله ديوان من أقسام ثلاثة تركى وفارسى وعربى لأنه كان يحذق تلك اللغات الثلاث[٤] .

وفى القسم التركى من ديوانه منظومتان أولاهما فى النعت والأخرى فى المعراج[٥]،وهو القائل :

(حبذا هو من مظهر لشعاع الخلق ، وواهب للكائنات نور الحدق . ومفتاح لكنز العلم اللدنى ، ونديم فى مأدبة «أدن منى» . خطوط رايته «إنا فتحنا» ، ولواء نصرته «إنا كفينا». ألا يزيد فى الحياة ذلك الكلام ، الذى يتضمن «يحيى العظام» . لسانه ببغاء الوحى حلوة الكلام ، وقلبه مرآة لما لله من إلهام)[٦] . تلك منزلة الرسول الكريم فى عقول وقلوب

---

(١) د. شفق : تاريخ أدبيات إيران ، ص١٢٧ (طهران ١٣٢١).
(٢) عطار : منطق الطير ، ص٢٥ ـ ٣٠ (أصفهان ١٣٣٤).
(٣) آفتاب شـــرع وكـــردون يقين   نور عالم رحـمة للعـــالمـين
مهـــترين وبهـــترين أنبـــياء   رهنماى أصفيـــاء وأوليـــاء
كشت او مبعوث تاروز شمـــار   ازبراى كل خـــلق روزكـــــار
بركشادى مشكل مايك بيـك   تاناندى دردل ماهيـــچ شك
(٤) د. حسين مجيب المصرى . فى الأدب العربى والتركى ، ص٢٢ (القاهرة ١٩٦٢).
(٥) وهبى . ديوان وهبى ، ص٤ـ٩ (بولاق ١٢٥٣).
(٦) زهى پرتونمـــاى آفرينـــش   عيـــون كائناتـــه نور بينـــش
كليد مخـــزن عـــلم لدنـــى   نديـــم بزم خـــاص ادن منى
خطـــوط رايتى إنا فتحـــنا   لـــواى نصـــرتى إنا كفيـــنا
حيات افزا دكلـى هر كـلامى   كه سوزلر نكتهء يحيى العظـامى
لسانى طوطئ وحى شـكرخا   دلى آيينـــه الهـــام مـــولا

المؤمنين كافة ، وهذه تعابيرهم التى يستشف جوهرها ومخبرها من مظهرها ، كما يتاح لنا أن نتفهم ونقدر حال من جمعهم به زمان ومكان ، وعرفوا من شمائله وخاص شأنه ما كان ملء عيونهم وقلوبهم بالإضافة إلى من امتد بهم زمنهم فعرفوه على البعد متأملين متفكرين.

غير أن هذا كله لا ينبغى أن يصرفنا عن التفكير فى عكسه ونقيضه لأن الشئ وضده متلازمان ، وذلك ما يستبين لنا فى دعوة الرسول بأتم جلاء .

فمعلوم أنه ﷺ صدع بأمر الله فجعل يدعو إلى الإسلام سرًا جماعة من ذوى قرباه ومواليه وخلصائه ، ثم استجاب له عباد الله من كل قبيله فآزروه فى دين الله . وكانت قريش لما بلغهم أمره ، كبر عليهم أن يعيب آلهتهم ويخبرهم بأن آباءهم فى النار ، فأبغضوه عند ذلك وناصبوه العداوة ، وأخذه السفهاء من أهل مكة ومن آمنوا بدعوته بالعقوبة والأذى[١]، وهنا نفسح المجال للشاعر الپاكستانى محمد إقبال المتوفى عام ١٩٣٨م ليبدع فى التخيل وهو يجرى على لسان أبى جهل قولا هذه ترجمتنا له نظماً عن الشعر الفارسى[٢] .

صـدرنا نار تلظت من محمـد	فسراج الكعبة الوضـاء أخمـد
وبســاط دين آباء طـــوى	وأذاق ما عبـدناه التــوى
حطم اللات فكانت كالفتـات	منه فلتقتـص كـل الكائنـات
ناط منه القلب بالغيب الكنين	ومحا الحاضر بالسـحر المبين
فى قريـش بتّ أصـلا للنسب	يا لدين منـكر فضـل العرب
لات دومى لا تريمى يا منـات	أنتما فينا قلـوب خافـقات[٣]

وحاول أعداء النبى بادئ الأمر القضاء على دعوته مكذبين مفندين مستهزئين . فكان إذا رفع صوته هادياً مرشداً ، رفعوا أصواتهم فوقه بصياح المستنكرين ، وإذا مر فى طريقه أغروا الصبيان باعتراضه مهانفين وحضوهم على أن يخلعوا معه الحياء ويهتكوا ستر الحشمة[٤] ثم مدوا إليه أيديهم بالأذى . قيل إن رجلا . قيل حمل عليه ولببه حتى مزق

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ، ص١٨ (القاهرة ١٩٤١).

(٢) راجع كتابنا «فى السماء» ص٨٥ و٨٦ و٨٨ (القاهرة ١٩٧٣).

(٣)

سينهء ما از محمـد داغ داغ	از دم او كعبه راكل شـد چـراغ
تابسـاط ديـن آبـا درنـورد	باخـداو ندان ماكـرد آنچـه كرد
دل بغائب بست وازحاضر كسست	نقش حاضر رافسون او شكسـت
مذهـب او قاطـع ملـك ونسـب	از قريـش ومنـكر از فضـل عرب
أى منات أى لات ازين منزل مـرو	كرزمنـزل مـى روى ازدل مـرو

اقبال : جاويد نامه . ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .

(4) Dermenghem : La Vie de Mahomet. p. 82 (Paris 1926).

قميصه . فدعا الله أن يسلط عليه وحشاً يمزق جسده . وقد استمع الله لدعائه فلما رحل هذا الرجل إلى الشام اجتاز بمأسدة يقال لها الزرقاء ، وفيها خرج إليه أسد هصره وقطع جسده إرباً إرباً[1] .

ومن آذاه ﷺ حمالة الحطب ، وهى أم جميل بنت حرب بن أمية . كانت تحمل أغصان العضاة وهى شجرة ذات شوك فتلقيها فى طريقة . وإياها عنى الله بقوله ﴿**تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد*** ﴾ عنى أن فى جيدها سلسلة من نار أى سلاسل جهنم .. ولما نزلت هذه السورة قالت امرأة أبى لهب إن محمداً هجانى لأهجونه وقالت :

مذمماً قلينا ، ودينه أبينا ، وأمره عصينا

وقد عقد ابن الأثير فصلا فى تاريخه بعنوان (ذكر تعذيب المستضعفين من المسلمين) فقال هم الذين سبقوا إلى الإسلام ولا عشائر تمنعهم فجعل الكفار يحبسونهم ويعذبونهم بالجوع والعطش والضرب والرمضاء والنار ليفتنوهم عن دينهم . وضرب المثل ببلال الحبشى الذى كان يلقى فى الرمضاء إذا حميت الشمس وتلقى الصخرة العظيمة على صدره ، ويقال له لا تزال هكذا حتى تهلك أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى وهو لا يزيد على قوله أحد أحد[2] . كما ذكر عمار بن ياسر الذى أسلم هو وأبوه وأمه ، فكانوا يعذبونهم بحر الرمضاء. ولقد مر بهم ﷺ فقال : صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة . ومات ياسر فى هول العذاب . ولما خاشنت امرأته سمية أبا جهل فى القول ، طعنها بحربة فى يده فكانت أول شهيدة فى الإسلام[3] .

ولما خاب القوم فى مسعاهم وذهب جهدهم هباء منثورًا ، وأيقنوا أن عنفهم ليس يجدى ، توهموا أنهم بالغون ما يريدون بالملاينة بعد المخاشنة ، ومضى نفر من قريش إلى أبى طالب عم الرسول وقالوا له : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه . واستقدمه أبو طالب وقال له : يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم ، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك . فقال ﷺ : أى عم أو لا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها . قال وإلى ما تدعوهم ، قال ادعهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم . قال أبو جهل: ما

(١) جودت : قصص أنبياء ، ص١١٦ (استانبول ١٣٠٠).
(٢) المقريزى : النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم ، ص٣٢ (القاهرة).
(٣) ابن الأثير : تاريخ الكامل ، ص٣٤ جـ٢ (القاهرة).

هى لنعطينكها وعشر أمثالها . قال: تقول لا إله إلا الله . قال فنفروا وقالوا سلنا غير هذه فقال : لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها. فغضبوا(١) .

ومع كل ما شاهدوا من شديد تمسكه بالحق وأكيد عزمه على الدعوة إليه والمضى إلى غاية غاياته ، لم يشعروا بدبيب اليأس فى نفوسم ، ورأوا أن يحولوا بينه وبين الحجيج حين وفودهم على مكة . وقال من كان ذا سن ومنزلة فى قريش : يا معشر قريش ، إنه حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعض . وقال قائلهم : نقول كاهن قال لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قال آخر نقول مجنون . قال لقد رأينا الجنون وعرفناه . قال غيره : نقول شاعر فرد بقوله لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . ثم قيل نقول ساحر. قال لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم . ثم قال لهم إن لقوله لحلاوة وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر جاء بقوله ، هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته .

فعملا بمشورته وجلسوا بسبيل القادمين حجاجا ليحذروهم منه ويذكروهم بما يعرفون من أمره(٢) .

ولكن سعى القوم ضل وما أفادوا شيئاً من خبث حيلتهم وخديعتهم ، وما ذاك إلا لأن المنصرفين عن مكة عائدين إلى أرضهم بعد أداء مناسك الحج ، تحدثوا طويلا عن عجيب ما عرفوا من أمر النبى ودعوته الناس إلى نبذ دين آبائهم ، على ما فى ذلك من جرأة تثير عليه أشد السخط وقد تورده موارد الهلاك فكأن غرابة الخبر كانت سبب شيوعه ، وبالتالى شحذت الهمم لتبين حقيقته.

وطالت على النبى أعوام ثلاثة وهو يزع قومه عن عبادة الأصنام، بيد أن الوثنية كانت فى الصميم من نفوسهم، فقد كان بها من المغريات ما يعدمونه فى صفاء الدين الحنيف، وحرص عليها سادات قريش كل الحرص لما يتحصل لهم من منافعها، كما كان دوام سؤددهم وعظمة سلطانهم وعلو قدرهم فى الدفاع عنها والتمسك بها، فلا عجب وهذا شأنها، أن يشتد نضاله ﷺ ويمتد، ولا يتبعه فى ثلاثة أعوام من المؤمنين أكثر من ثلاثين(٣) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى ، ص ٦٥ و٦٦ جـ٢ (القاهرة ١٩٣٤).

(٢) ابن هشام : سيرة ابن هشام ، ص٢٤٧ و٢٤٨ جـ١ (القاهرة ١٣٣٢).

(3) Ameer Ali : The Spirit of Islam. pp. 23 (London 1922).

ولما اشتد البلاء بالمؤمنين ورأى النبى ألا طاقة لهم بأذى المشركين ، قال لأصحابه «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه» فهاجروا إلى الحبشة نحو مائة من المسلمين وأكرم النجاشي مثواهم وكلهم من بطون قريش .

وبعد وفاة أبى طالب، وكان النبى فى حماه ، ثقلت وطأة قريش عليه واشتد الأذى ، فمضى إلى الطائف مستنصراً أهلها ، غير أن كلامه صادف آذانا صما ، واجتمع عليه الغوغاء وصاحوا به مستهزئين حتى ألجأوه إلى بستان بعد أن رجموه ، وما استطاع العودة من الطائف إلى مكة سالما إلا بشق الأنفس[(١)]، ثم توفرت الأسباب لهجرة النبى إلى يثرب التى عرفت بمدينة النبى أو المدينة بعد هجرته إليها ﷺ ، ولزمها اسم المدينة على كثرة أسمائها التى تبلغ تسعة وثلاثين اسمًا[(٢)] فقد سكنها كثير من اليهود مع قبيلتى الأوس والخزرج اللتين ألفتا منهم وجود دين سماوى فيه ذكر للأنبياء والوحى ، ورأى أهل هاتين القبيلتين من العرب فى دين الإسلام ما يذكرهم بما ورد فى الدين السماوى فتهيأت نفوسهم لتصديقه، كما ماج مجتمع المدينة بالنزاع والعداء والفوضى ، فآنس القوم فى الدين الإسلامى رأبا للصدع وجمعاً للشمل وخلاصاً لهم مما يضيقون به ذرعاً [(٣)]. غير أن الهجرة لم تكن مطلباً سهلا ، فسرعان ما تصعب وتوعر ، فما نمى إلى قريش نبأ عزم النبى على الهجرة متحالفاً مع أهل يثرب حتى اجتمعوا فى دار الندوة وتشاوروا فى أمره ، فرأى البعض حبسه والبعض الآخر نفيه كما حبذ غيرهم قتله ، إلى أن أجمعوا على أن يؤخذ من كل قبيلة فتى ليضرب بالسيوف ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل، ولا يستطيع بنو عبد مناف محاربة العرب جميعاً ، وفى ذلك نزل قوله تعالى فى سورة الأنفال **﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾** .

وأخبر جبريل ـ عليه السلام ـ رسول الله ﷺ بذلك ، وأمره ألا يبيت فى مضجعه تلك الليلة، وأذن الله له ـ عز وجل ـ فى الهجرة ، وأمر علياً بالنوم فى فراشه قائلا له : «اتشح ببردتى فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه» ، وباتوا مترصدين ، ولما أصبحوا وجدوا عليًا فخيب الله سعيهم وأبطل ما كان من مكرهم[(٤)].

---

(1) Ikbal Ali Shah : Mohamed the Prophet. p 36 (London 1932).

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، ص ٤٣٥ المجلد السابع (القاهرة ١٩٠٦).

(3) Arnold : The Preaching of Islam. pp. 20 (London 1935).

(٤) النسفى : تفسير القرآن الجليل ، ص٦١٢ المجلد الأول (القاهرة ١٩٣٦).

والخبر فى هذا يرويه مؤرخ فارسى قديم بقوله إن علياً كرم الله وجهه بلغ من الشجاعة أبعد غاية بعد أن حل محل النبى ﷺ ، وأوحى الله إلى جبريل وميكائيل أنه آخى بينهما وجعل عمر أحدهما أطول من عمر صاحبه ، ثم سألهما أيهما يؤثر نفسه على أخيه ويرتضى أن يكون أقصر منه عمراً . فقال الملكان إن كلا منهما يؤثر نفسه ولا يريد لحياته أن تقصر عن حياة الآخر . فقال جلّ وعلا ولم لا يتشبه أحدكما بعلىّ، فقد آخيت بينه وبين محمد وها هو ذا جعل نفسه فداء له ، وفضل حياته على حياته. ثم أمرهما بالهبوط من السماء إلى الأرض ليدفعا عن علىّ شر أعدائه . وفى ذلك نزل قوله تعالى ﴿**ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد**﴾ .

ولقد نثر النبى حفنة من التراب على رؤوس المشركين ، وظهر لهم إبليس فى صورة إنسان ، فقال لهم إن محمدا مرّ بهم خارجاً . وسألوا عليّا عن محمد فقال لهم إنهم أعلم بذلك لأنهم وصلوا الليل بالنهار فى طلبه . فشعروا بالخزى والخجل وولوا عنه بإشارة من أبى لهب(١) .

ولقد أمر الله تعالى نبيه الكريم بالهجرة من مكة إلى المدينة . وهذه أبيات فى هذا للشاعر التركى سليمان چلبى من منظومة له أتمها عام ٨١٢ هجرية تسمى «مولد» أو «وسيلة النجاة»(٢) .

(ومن بعد وبأمر الله ، خير البشر ، أزمع عن مكة على السفر . هاجر من مكة الرسول ، وإلى المدينة كان مقدم الرسول ، وأعلم بأمر الله الناس أجمعين ، ورسا الإسلام على أس ركين . فيها تلبث واتخذ المقام ، وبها وافاه الحمام)(٣) .

وتجهز أبو بكر الصديق مهاجراً مع النبى إلى المدينة فقال له ﷺ على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى . قال أبو بكر وترجو ذلك بأبى أنت . قال نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله لصحبته ، ولجأ الرسول مع صاحبه إلى غار فى جبل يقال له ثور ومكثا فيه ثلاث ليال . وطلب أبو بكر إلى عبد الله بن أبى بكر أن يستمع لهما ما يقول الناس نهاراً ويأتيهما بالأخبار ليلا ، كما كانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام(٤) .

(١) خواندامير : حبيب السير ، ص٣٢٣ و ٣٢٤ جلد ١ (تهران ١٣٣٣ شمسى).

(٢) د. حسين مجيب المصرى : فى الأدب العربى والتركى ، ص١٩٥ (القاهرة ١٩٦٢).

(٣) داخى بوندن صكره أول خير البشر — مكه دن حق امر له قلدى سفر
مكدن هجرت ايدوب كيتدى رسول — اول مدينة شهرينه يتدى رسول
امر حقه بلدردى تمام — دين اسلام بولدى اكسكسز نظام
آنده طوردى آدى ايدندى مقام — آنده اولدى آخر عمرى تمام

(٤) المحب الطبرى : الرياض النضرة ، ص٦٢ و ٦٤ (القاهرة).

وفى سورة التوبة خير وصف لهما فى الغار ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصحابه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم**﴾ .

كما يروى أن الله تعالى أرسل عنكبوتاً فنسجت فى الحال على باب الغار ، وحمامة عششت وباضت وأفرخت للوقت . وروى أصحاب الحديث فى المحن التى لحقت به ﷺ من المشركين ما يطول ذكره يستفيض شرحه . ولقد أعقبه الله من كل تلك الشدائد بالنصر المبين وإظهار على دينه كل دين[١] .

ثم سلكا إلى المدينة طريقاً تكتنفها المخاوف إلى أن ورداها وكان ذلك فى السادس عشر من ربيع الأول .

ولكن قبل أن يبلغها أقام فى موضع يقال له قباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وركب منه يوم الجمعة يريد المدينة فجمع أول جمعة فى مسجد لبنى سالم ، ثم مرّ ﷺ بمنازل الأنصار الواحد تلو الآخر وكلهم يرغب إليه أن ينزل عليه. وبركت ناقته وجاء أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى فنزل ﷺ عنده، فكان مقامه فى منزله سبعة أشهر[٢] .

وهنا نشاهد أبا أيوب الأنصارى وهو يجتاز بابا من أبواب التاريخ ، ونلمح صورته أول ما نلمح فى ذلك الإطار المحيط بها الإطار العريض الذى يمسكها ويمكن من تعليقها فى الخاطر، إلى أن نعود إليها فى فصل مقبل من فصول كتابنا حيث نتناولها بالدرس وندقق فى ملامحها النظر ، على أنها صورة مضيف النبى ﷺ.

وإذا ما بحثنا له عن صورة أخرى لها إطار خاص بها ، لوجدنا صورة لأبى أيوب المحارب. وهذا يقتضينا بسط الكلام فى غزوات النبى ﷺ والجهاد فى سبيل الله ، وحروب أخرى خاض المسلمون غمارها ، وبذلك تنعقد الصلة الوثقى بين أبى أيوب وتلك الأحوال التى تقلبت بالدين الحنيف فى فجر تاريخه ، والتيارات التى تجاذبت أهله فى حقبة ليست بالقصيرة ، والحركات التى ماجوا فيها فرقموا أسماءهم على جبين الدهر.

ونبدأ بالإشارة إلى صلته الأولى بالنبى ﷺ ، فنروى عن الواقدى قوله إنه شهد العقبة مع السبعين من الأنصار[٣] وقوله مع السبعين من الأنصار يدل على أنها العقبة الثانية.

(١) التنوخى : الفرج بعد الشدة ، ص١٩ جـ١ (القاهرة ١٩٥٥).
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص١٩ و ٢٠ (القاهرة ١٩٣٢).
(٣) الواقدى : الطبقات الكبرى ، ص٤٩ (١٣٢١).

والخبر فى ذلك أنه فى السنة الثالثة عشر من النبوة التقى بالنبى بعد الحج ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج. وتكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

وتكلم ﷺ فتلا القرآن ودعا القوم إلى الدخول فى دين الله ، وقال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . وقال أحدهم : فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب . ثم قال عليه الصلاة والسلام : أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم[(١)].

وشهد أبو أيوب بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها [(٢)].

فغزوة بدر تعد بحق أول نصر للمسلمين على المشركين، وسمى المسلمون تلك الغزوة غزوة الفرقان لأن الله فرق فيها بين الحق والباطل ، كما سمى كل من شهدها بدريا منتسباً بذلك إلى عظيم من شرفها[(٣)] وقد وقعت فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وفيها قتل من المشركين خمسون رجلا ووقع فى الأسر أربعة وأربعون ، واستشهد من المؤمنين أربعة عشر رجلا[(٤)] .

أما غزوة أحد فقد رغّبت المسلمين فى الاستشهاد ، وهذا رجل منهم يقول (عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة . لقد أخطأتنى وقعة بدر وكنت عليها حريصاً، حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمت ابنى فى الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول : ألحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً . وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنة، وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى)[(٥)].

أما غزوة الخندق فهى التى أشار فيها سلمان الفارسى بحفره، وخرج المهاجرون

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ص ٤١ و ٤٢ جـ٢ (القاهرة ١٣٣٢).

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى ، ص٢٢٢٤ جـ١٣ القسم الرابع (ليدن ١٨٨١).

(٣) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ، ص١٤٧ (القاهرة ١٩٣٥).

(٤) ابن قتيبة : المعارف ، ص٦٨ (القاهرة ١٩٣٤).

(٥) د. محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص٢٥٧ (القاهرة ١٣٥٤).

والأنصار حاملين المكاتل على رءوسهم كما كان ﷺ يحمل التراب معهم [(١)]. وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى صفوف المقاتلـين ، وقد بارز أحد المشركين فقتله وينسب إليه فى ذلك قوله[(٢)] :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ونصـرت رب محمد بصواب

فصددت حين تركته متجـدلا كالجـذع بين دكـادك وروابى

وقوله إنه نصر رب محمد يدل على كثير ، لأنه يؤكد أن المسلمين إنما كانوا يقاتلون ذوداً عن حياضهم ودفاعاً عن دينهم . وهنا نقف وقفة لابد منها لنقول إن النبى ﷺ لم يقاتل رغبة منه فى قسر الكافرين قسراً على الدخول فى دين الله ، بل إنه اضطر إلى حمل السيف ليدافع به عن الحق ويناضل عن الإسلام الذى أعد المشركون كل ما لديهم من قوة لاستئصال شأفة دعوته والقضاء المبرم على أهله . وهذا من صنيعه مطابق لصريح القرآن ، فقد جاء فيه قوله تعالى ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾ .

ولذلك ما يؤيده بالبرهان القاطع ، فقد ذكر المفسرون قصة فى قوله تعالى ﴿**ورفعنا فوقكم**﴾ وهى أنه جلّ وعلا ظلل بنى إسرائيل بالطور وخوفهم برفعه فوقهم ، وذلك لكى يؤمنوا . فقيل إن هذا إكراه على الإيمان وهو مناف للتكليف ، غير أن ما يفعل بالإكراه يصبح اختيارياً بزوال ما به من ذلك الإكراه . وهذا ما كان جائزاً فى الأمم السابقة ، ونفى الإكراه خاص بالإسلام ، لقوله تعالى ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾ وقوله ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾[(٣)] .

وما قاتل ﷺ إلا من أجل إعلاء كلمة الدين ، وكان على ذكر من هذه الحقيقة ، ومن الدليل على ذلك أنه لما خرج لغزوة بدر، أراد جماعة من غير المسلمين أن يخرجوا معه طمعاً فى الغنائم ، ولكنه أبى عليهم الخروج معه، وشرط أن يؤمنوا قبل الخروج ليقاتلوا .

وما أراد من حربه سوى المنشود من غايته ، ولا كان راغباً فى التشفى من أعدائه شأن من يحاربون ، فلما وزع أسرى بدر على أصحابه طلب إليهم أن يستوصوا بهم خيراً ، على حين رأى عمر ضرورة قتلهم اتقاء لشرهم من بعد ، وأمر عليه الصلاة والسلام بقبول الفداء منهم[(٤)] .

---

(١) محمد على خليل : زندگانى محمد پيغمبر اسلام . ص٤٠٣ و ٤٠٤ (تهران ١٣٣٧).

(٢) المقدسى : البدء والتاريخ ، ص ٢١٨ جـ٤ (باريز ١٩٠٧).

(٣) رشيد رضا : تفسير المنار ، ص٣٤٠ جـ١ (القاهرة ١٣٦٩).

(٤) محمد جميل بيهم : فلسفة تاريخ رسول الله ، ص١٦٥ و ١٧١ (بيروت).

قال تعالى ﴿يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾.

وتلك الآية تفسر لنا معنى الجهاد فى الإسلام الذى دعا النبى المؤمنين إليه وحضهم عليه كأمر إلهى لا يسعه إلا أن يصدع به . وقد عده بعد الإيمان بالله ورسوله أفضل ما يعمله المسلم ابتغاء مرضاة ربه . وأعلن فى الناس أن الجهاد باب من أبواب الجنة . وحكى عن الله عز وجل «أيما عبد من عبادى خرج مجاهداً فى سبيلى ابتغاء لمرضاتى ضمنت له إن أرجعته أرجعه بما أصاب من أجر وغنيمة وإن قبضته غفرت له»(١).

واتفق فى العام التاسع من الهجرة أن تخلف بعض المسلمين عن القتال ، وما كان تخلفهم لقاهر من عذر فسخط ﷺ عليهم ، ونهى الناس عن كلامهم والاختلاط بهم ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة ، وكان الواحد منهم يشهد الصلاة فى مسجد الرسول ويلتفت إليه فيعرض عنه ، ويطوف بالأسواق فلا ينظر إليه ولا يكلمه أحد، وتأذوا بذلك كثيراً حتى ضاقت عليهم دنياهم وضاقت عليهم أنفسهم.

أما حكم الشريعة فى الجهاد فهو أنه فرض كفاية إذا قام به فريق من الناس سقط عن الباقين ، إلا أن يكون النفير عاماً فيفرض عيناً ، والمخاطبون بالفرضية من عدا الصبى والمرأة والعبد والأعمى والمقعد(٢).

وبعد أن عرفناه مجاهداً من صد عن سبيل الله ، محارباً مع رسول الله صلوات الله عليه ، نراه محارباً مع على كرم الله وجهه .

فبعد أن قال صاحب البداية والنهاية إنه شهد بدرا والعقبة والمشاهد كلها، قال إنه شهد مع على قتال الحرورية(٣) ،وهم الخوارج المنسوبون إلى حروراء ، وهى قرية بظاهر الكوفة نزلوا بها بعد أن انشقوا عن على . وقد بويع كرم الله وجهه بالخلافة الغد من قتل عثمان بالمدينة ، وبايعه كل من كان بها من الصحابة قيل وبايعه طلحة والزبير على كره منهما، وحارباه فى وقعة الجمل إلا أنهما قتلا(٤) ، وانصرف على إلى الكوفة ثم خرج عليه معاوية والتقى به بصفين. وكان ما كان من خدعة عمرو بن العاص ومكيدته ، وتداعى الناس إلى الصلح والتحكيم الذى كان غدرا أفضى إلى تسليم أهل الشام على معاوية بالخلافة ، أما رجال على الذين كانوا قد أشاروا بالتحكيم وألزموه به ، فندموا عليه وقالوا

(١) النعمان عبد المتعال القاضى : شعر الفتوح الإسلامية، ص٣٤ و ٣٥ (القاهرة ١٩٦٥).
(٢) أمين الخولى : الجندية والسلم ، ص١ (القاهرة ١٩٦٠).
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ص٥٨ جـ٧ (بيروت ١٩٦٦).
(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص١٧١ (القاهرة ١٩٥٢).

لعلى : لا حكم إلا لله، ووعظهم كرم الله وجهه وبصرهم بالحق إلا أنهم نابذوه وخرجوا عليه ، وصدرت منهم أمور تدل على أنهم يخبطون خبط عشواء . مثال ذلك أن رجلا وضع فى فيه رطبة سقطت من نخلة ، فقالوا له أكلتها غصباً وأخذتها دون أن تدفع لها ثمناً. وعقر أحدهم خنزيراً بسيفه فقالوا له هذا فساد فى الأرض . كما قتلوا النفس التى حرمت إلا بالحق . ورغب إليه أتباعه وأشياعه أن يقاتل الخوارج قبل أن يقاتلوا أهل الشام أعداءهم فخرج إليهم ولقيهم فى النهروان فأبادهم ، وكأنما قيل لهم موتوا فماتوا[١].

ولما عبأ على أصحابه ، جعل على الخيل أبا أيوب الأنصارى وهو يحمل راية أمان ، فناداهم أبو أيوب : من جاء منكم إلى هذه الراية فهو آمن ، ومن دخل المصر فهو آمن ، ومن انصرف إلى العراق ومن خرج من هذه الجماعة فهو آمن ، فإنه لا حاجة لنا فى سفك دمائكم . ولكنهم شدوا على أصحاب على شدة رجل واحد حتى صرعهم الله[٢].

فأبو أيوب فى حربه مع على يجاهد من خرجوا على الدين ، فلما ركب الخوارج الشطط وشرطوا فى العودة إلى طاعته أن يعترف بكفره فى قبول التحكيم قال لهم ما نصه (أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم آبر . أبعد إيمانى بالله وجهادى مع رسول الله أشهد على نفسى بالكفر ؟ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ! فأوبوا شر مآب ، وارجعوا على أثر الأعقاب ، أما إنكم ستلقون بعدى ذلا شاملا وسيفاً قاطعاً ، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة)[٣].

وقال كرم الله وجهه فى قولهم (لا حكم إلا لله) إنها (كلمة حق يراد بها باطل).

وقد لجأت فلول منهم إلى البحرين والأحساء حيث كانت نواة جماعة من المتعصبين طالما رنقت صفو الدولة بغاراتها[٤] كما أن ثورات الخوارج كانت مما تأذت به الدولة طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ودفقت أمواجاً من الدماء[٥] .

وقيل إن أبا أيوب الأنصارى فى يوم النهروان علا رجلا من الخوارج يقال الله عبد الله الراسبى ، فضربه بسيفه ضربة أبانت يده وقال : بؤ بها إلى النار يا مارق . فرد عليه الرجل بقوله : ستعلم أينا أولى بها صليا. ثم أقبل من يدعى صعصعة بن صوحان فقال : أولى بها والله صليا من ضل فى الدنيا عميا وصار فى الآخرة شقيا . أبعدك الله وأترحك،

(١) ابن طباطبا : الفخرى ، ص٦٩ (القاهرة ١٩٢٧).
(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ص١٢٤ جـ١ (القاهرة).
(٣) على بن أبى طالب : نهج البلاغة ، ص١١٥ و ١١٦ جـ١ (القاهرة).
(4) Ameer Ali : A Short History of the Saracens. p. 51 (London 1949).
(5) Lammens : L'Islam Croyances et Institutions. p. 156 (Beyrouth 1920).

ذق يا مارق وبال أمرك ، وشرك أبا أيوب فى قتله فضربه بالسيف فأبان رجله وطعنه فى بطنه ، وقال : لقد صرت إلى نار لا تطفأ ولا يبوخ سعيرها . ثم احتزا رأسه وأتيا به عليا فقال : هذا رأس الفاسق الناكث المارق(١).

وما كان أبو أيوب أميراً من أمراء جيش على ليس إلا ، فقد استخلفه على المدينة لما خرج إلى العراق ثم لحق به من بعد(٢) وتلك منزلة عالية يسمو إليها . فهو مختص بعلى أثير لديه رفيع القدر ، ومن رجاله الذين يأتمنهم على وديعة الولاية فى الوقت العصيب . وبذلك يجتمع لأبى أيوب شرف صحبة النبى واستضافته وشهود المشاهد معه ، والاتصال الوثيق فى السلم والحرب بعلى كرم الله وجهه ، ولا شك أن هذا كله فى عداد ناقبة ومأثور محامده.

ولكنه يطلعنا منه على صورة له أخرى . وهى صورة المحارب الذى يزايل أرضه العربية ليخرج فاتحاً فى سبيل الله مغيراً معالم التاريخ بإيمانه وسنانه فى وقت معاً . فقد شهد فتح مصر ، كما ذكر صاحب النجوم الزاهرة ، وهو من شهد فتحها من الأنصار(٣).

وكان عمر يشفق من فتح مصر بعد أن تشتت جيوشه فى فارس والشام والجزيرة ، غير أن أسبابا مهدت لذلك الفتح ورغبت فيه ، فقد كان عمرو ابن العاص فى الجاهلية يختلف إلى مصر تاجراً يبيع العطر والأدم ، واتفق له فى زورة له أن وافى مدينة الإسكندرية والقوم فى عيد لهم يترامون بكرة ، ومن المتعارف عندهم أن من وقعت فى حجرة ملك الإسكندرية أو ملك مصر . وبينا عمرو بين المشاهدين إذ سقطت الكرة فى حجرة ، فعجب القوم قائلين ما كذبتنا هذه الكرة إلا هذه المرة ، وأنى لهذا الأعرابى يملك الإسكندرية ، هذا والله لا يكون ! ودارت الأيام وفتح المسلمون الشام ، فاستأذن عمرو عمر ابن الخطاب فى فتح مصر، وقال إنه عالم بها وبطرقها وهى أقل شئ منعة وأكثر أموالاً. وقيل إنه مضى إلى مصر دون أن يستأذن فى المضى إليها ولقى بها جموع الروم فهزمهم(٤).

كما يروى عن كعب الأحبار قوله : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أخرفت ، وقال غيره : فلينظر إلى أرض مصر إذا أزهرت(٥).

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ص ٨٢ جـ٢ (القاهرة ١٣٤٦).
(٢) ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة ، ص٤٠٣ جـ١ (القاهرة ١٩٣٩).
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ص٢١ جـ١ (القاهرة ١٩٣٠)
(٤) الكندى : ولاة مصر ، ص ٢٩ و ٣٠ ، ٣١ (بيروت ١٩٥٩).
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٥ (ليدن ١٩١٠).

ولا غرو فقد ساءت حال مصر تحت حكم الروم وكانت فى حال أتعس من حال الشام ، فأذل نير الروم أهلها وأضعف شأنهم ، وهم الذين كابدوا من هول اضطهاد حكامهم ما كابدوا ، فما أفادوا من ثروة بلادهم ولا حافظوا عليها فعدموا الرخاء[١].

تلك هى حال مصر التى يسرت على العرب فتحها ، وهو ذلك الفتح الإسلامى الذى رفعها من كبوتها وأصلح شأنها أيما إصلاح.

وليس أبو أيوب بالجندى الذى يطوى الأرض غازياً وحسب ، بل هو إلى ذلك يركب البحر فاتحاً فى أول عهد العرب بركوبه فاتحين ، وأول من غزا فى البحر معاوية بن أبى سفيان، وذلك أنه لم يزل بعثمان بن عفان حتى قبل ذلك وعزم عليه ، وهو القائل له : تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ففعل[٢].

وهذا قاطع الدلالة على أن جند البحر كانوا خيرة الجند فى تقديره ، وذلك التقدير مردود إلى أن العرب لم يكن لهم إلف بركوب البحر والغزو فيه .

كما أن أبا أيوب خرج فاتحاً إلى جزيرة قبرص[٣]. وقد أشار صاحب الأخبار الطوال إلى فتح قبرص إشارة لامحة بقوله : إن أميرها معاوية بن أبى سفيان[٤]. أما البلاذرى فتجاوز التلميح إلى التصريح قائلا : إن معاوية غزاها فى البحر ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها ، وذلك فى سنة ثمان وعشرين ، وقد صالح أهلها المسلمون على سبعة آلاف ومائتى دينار يؤدونها فى كل عام[٥].

وأراد معاوية أن يقدم ابنه يزيد على الصائفة ، وهى غزوة الصيف ، وبها سميت غزوة الروم لأنهم كانوا يغزون صيفا . فكره ذلك يزيد فى أول الأمر ولكن معاوية أبى عليه إلا أن يفعل ، فكتب إليه يزيد يقول :

نجىّ لا يـزال يعـــد ذنـبا   لتقطع وصل حبلك من حبالى
فيوشك أن يريحـك من إذائى   نزولى فى المهـالك وارتحـالى

ثم تجهز إلى الخروج وما تخلف عنه أحد ، وكان فيمن خرج أبو أيوب الأنصارى صاحب النبى ﷺ[٦].

(1) Marcel : Histoire de L'Egypte. p24. (Paris 1834).

(٢) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ٢٢٠ جـ٢ (بولاق ١٣١٤).

(3) Levi Provencal : The Encyclopaedia of Islam (London 1949).

(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ، ص١٤٠ (القاهرة ١٣٣٠).

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص١٥٧ و١٥٨ (القاهرة ١٩٣٢).

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ص١٢٨ جـ٣ (القاهرة ١٩٢٨).

وعقد معاوية عزمه على فتح القسطنطينية ، وهذا الفتح متصل بأسباب متداخلة فى رأى المستشرق البلجيكى لا مانس ، وتواشجت فيه أحداث واعتبارات وملامح بارزة تتسم بها شخصية معاوية وابنه يزيد . ونحن نرى فى أحكامه مواضع للتجريح وبكلامه حاجة ماسة إلى التعقيب والتصويب .

فقد ذكر أن معاوية يعرف عن ابنه يزيد أنه صاحب لهو وشراب قبل أن يصبح ولياً للعهد ، ويقول إن الشك يساوره فى سخطه على مثل هذا من حاله ، لأنه يعرف كيف يفرق بين سلوك الحاكم وسلوك الأمير.

ونحن لا نحسبه إلا متظننا لأنه لم يدل بما يقوم حجة على ذلك ولا نعرف من سيرته وخلقه أنه كان رقيق الدين أو متهافتا على المجون والصبوة.

ثم يقول إن لمعاً من أخبار يزيد فى مجالس لهوه كانت تبلغه ، وذلك حين كانت الأخبار ترد من بلاد الروم بأن الجيوش التى كان قد أرسلها لفتح عاصمة الروم تندحر تحت أسوارها ، وتفتك بها النار الإغريقية ، ويهلكها الطاعون والجدرى . فرأى معاوية من الخير أن يرسل ابنه على رأس مدد يلحق بها ، وبذلك ينتزعه من حياته الماجنة ويهيئ له سبيلا إلى المجد ، مما ينفعه ويزكو به إذا ما وقع الخيار له ولياً للعهد .

وهذا من كلامه مناقض لما أسلف قوله ، مؤيد لنا فى تحفظنا ونحن نستبعد أن يكون معاوية راضيا عن يزيد وهو يخلع العذار .

وذلك الباحث يعدل رأيه وهو يروى من بعد قول من قال : واتفق موت بنت رسول الله ﷺ وحصول مثل هذه الغزوة لابن معاوية فطمع أبوه وقويت نفسه على أن يجعله ولى العهد من بعده .

ثم يعرض رأى مستشرق آخر فى مغازى بيزنطة يذهب إلى أن العرب ساءهم وأغضبهم أن يكون للمسيحية الحكم والبقاء إلى جانب الإسلام ، فأدركوا مثالية فى محاربة الإمبراطور لا تدانيها مثالية فى محاربة غيره من أعدائهم فما كفوا قط عن الحرب ، ولقد أصبح حكام دمشق شعبيين وفى الوقت عينه جيشوا جيوشهم(1) .

هذا فاسد فى العقل ظاهر البطلان ، فما حارب المسلمون ليكرهوا أحداً على الدخول فى دينهم ، بدليل قوله تعالى **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾** .

---

(1) Lammens : Etudes sur le Regne du Calife Omaiyade Mo'awia ;er, pp. 442 - 446 (Beyrouth 1906).

لقد فرض المسلمون الجزية على من لم يقبل الإسلام ديناً ، وهذا مالا غاية بعده فى احترام حرية العقيدة . ويروى عن عمر بن الخطاب أنه مر على قوم أقيموا فى الشمس ، وكان ذلك فى جهة من أرض الشام . فسأل عن شأنهم ، وعرف أنهم من أهل الذمة أقيموا فى الجزية . وسأل عما يعتذرون به فقالوا إنهم يقولون : لا نجد . فأدركته الرقة لهم وقال: لا تكلفوهم مالا يطيقون ثم أمر بهم فخلى سبيلهم.

ورأى شيخاً ضريراً يسأل ، فسأله من أى أهل الكتاب هو ، فقال إنه يهودى ولجأ إلى السؤال ليؤدى الجزية على شدة فقره . فأخذ بيده إلى منزله وأعطاه مما وجده ، ثم أرسله إلى خازن بيت المال وقال له انظر هذا وأمثاله [1].

وإن دل هذا على شئ فهو قاطع الدلالة على التسامح بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معنى، وهو يدحض حجة من يدعى أن العرب المسلمين كانوا يحاربون الروم لمجرد أنهم يخالفونهم فى عقيدتهم، وأن غايتهم إكراه أهل الكتاب على الدخول فى الدين الحنيف.

لقد كان الروم يغيرون على بلاد العرب كرة بعد أخرى ، وهذا ما كان متوقعا منهم لأن بلادهم كانت متاخمة لأرض المسلمين ، فكان من الحتم أن يغزوا ديارهم . **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾** .

وهذا المؤلف يوالى قوله بما فيه بعض التصويب لما عرض من رأى فيقول إن معاوية أقام عرشه فى الشام فكان لزاماً أن يستجيب لقانون عجيب لأهل الشام وهو نظرهم على الدوام إلى الغرب .

والذى يستقيم فى الفهم أن يقال إن العرب أرادوا رفع لوائهم فى عاصمة الروم ونشر دينهم كما صنعوا مع الروم فى مصر ، ولاشك أن هاتين الأرضين بالإضافة إلى أرض فارس ، كانت امتداداً لدولة العرب فى اتساع رقعتها واطراد بعد حدودها . وما كان العرب فى غفلة عن دولتهم التى كانت مع دولة الفرس فى كفتى ميزان ، وفى القرآن قوله تعالى **﴿ألم* غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾** .

وهذا ذكر لما دار بين الفرس والروم من حرب . وقد انتصر الفرس ثم التقى الجيشان فى السنة السابعة من الالتقاء الأول وغلبت الروم فارس بأمر الله وفرح العرب يوم تغلب الروم وعلموا به يوم بدر بنزول جبريل بذلك فيه مع فرحهم بنصرهم على المشركين[2].

---

(١) محمد الغزالى : التعصب والتسامح ، ص٤٢ و ٤٣ عن الخراج لأبى يوسف .

(٢) جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى : تفسير الجلالين ، ص٥٩٦ (القاهرة ١٣٢٦).

وإذا ما عرجنا على الحديث الشريف وجدناه ﷺ يقول : (أول جيش من أمتى يركبون البحر ، وأول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم) .

ويقول (هل سمعتم بمدينة جانب فى البر وجانب منها فى البحر . قالوا نعم يا رسول الله هى القسطنطينية) .

ويقول (فيفتحون القسطنطينية بالتسبيح والتكبير فيصيبون غنائم لم يصيبوا مثلها).

وهو القائل (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله)[١].

ويثير المستشرق لامانس نقطة أخرى فيها نظر ، فهو القائل إن مجرد وجود يزيد تحت أسوار القسطنطينية قد يكفر عنه سيئاته عند عدد من المؤمنين أو على الأقل يعقل ألسنتهم عن لعنه . وهذا منه حسبان نعدم الدليل على صحته . لأن المسلمين جميعا من أهل السنة والشيعة ساخطون عليه محنقون ، ففى عهده كانت فاجعتهم بسبط النبى الشهيد، وقتل كثير من الصحابة والتابعين واستبيح أهل المدينة حين خلعوا طاعته ، وروى فى سبب خلع أهل المدينة له قول بعضهم : والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء ! إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة . وما اغتفر المسلمون ما كان منه فى مقبل الأيام .

والفارسى الذى لا يغضب من أن يقال له أنت كاذب أو أنت نذل يضرم غيظه أن يقال له يا يزيد[٢]. وقد أغلظوا اللائمة على الشاعر الفارسى حافظ الشيرازى . المتوفى عام ٧٩١ للهجرة ، لأن أول غزل فى ديوانه تضمن شطراً من شعر يزيد هو هذا :

أنا المسموم ما عندى بترياق ولا راقى   أدر كأساً وناولها على أيها الساقى

وجعل حافظ الشطر العربى الأول من بيته المؤلف من شطرين عربى وفارسى :

ألا يا أيها الساقى أدر كأسا وناولها .

ويقول المناوى فى الجامع الصغير: (تقدم كون يزيد بن معاوية غير مغفور له وإن كان من ذلك الجيش المغفور ، لأن الغفران مشروط بكون الإنسان من أهل المغفرة ، ولا كذلك يزيد)[٣].

وقد ورد الوعيد باليأس من غفرانه كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسله[٤].

---

(1) Ogut : Meshur Eyyub Sultan SS 132, 134, 135 (Istanbul 1957).

(2) Browne : A Literary History of Persia. p. 225, VI (Cambridge 1929).

(3) Ogut : Meshur Eyyub Sultan S 151 (Istanbul 1957).

(٤) المسعودى : مروج الذهب ، ص ٩٧ جـ٢ (القاهرة ١٣٤٦).

ولما أراد معاوية بيزيد أن يقدم على فتح القسطنطينية ، كره ذلك يزيد وأرسل إليه شعراً حاول فيه أن يرقق قلب أبيه حتى يثنى عن عزم دفعه إلى حومة الوغى ، بيد أن هذا الشعر لم يحرك فى ذلك القلب شعوراً .

فقبل يزيد أن يخرج إلى القسطنطينية غازيا ولكن على كره ومضض ، قيل إنه أبلى بلاء حسناً فى تلك الغزوة فاستحق أن يدعى فتى العرب ، وقد أصيب فيها بالجدرى فبقى أثره فى وجهه مذكراً بها ، ورغب إلى أبيه من بعد أن يشركه فى الجهاد .

ثم يشير لامانس إلى أبى أيوب ويقول إنه ذلك الأنصارى المبجل مضيف النبى ومن شهد معه المشاهد ، كما نالت زوجه شرف مؤاخاة السيدة عائشة رضى الله عنها . غير أنه يذكر ما نقف منه متسائلين متحفظين . فهو يقول إنه انزوى فى المدينة وقد برحت به آلام الندم على أنه لم يخرج مع النبى فى إحدى غزواته.

وهو يقصد بذلك تلك الغزوة التى أمر النبى ﷺ فيها أسامة بن زيد أن يغير على أرض فلسطين بالقرب من مؤتة ، وتجهز الغزاة للجهاد إلا أن اشتداد المرض بالنبى ﷺ حال دون سيرهم(١) .

ثم يقول إن أبا أيوب رحب ترحيباً حاراً بدعوته غازياً إلى القسطنطينية ، تكفيراً عن ذنب تتأذى نفسه من شعورها به . إذا ما تابعناه على هذا من ظنه ، فإلى أى باعث نرد خروج أبى أيوب إلى مصر أو إلى قبرص ؟ وفى نظرنا أن التظنن الذى يحتمل الصواب لا ينبغى أن يعبر عنه كالتعبير عن الحكم الجازم . وقوله هذا يعدم الدليل من النقل والعقل ولا جدوى من البناء على غير أساس، ومن خطل الرأى أن نقود الظنون إلى حيث لا موجب لها .

ولمتوهم أن يتوهم أن بنا رغبة عارمة فى تجريح كلام غيرنا من العلماء الأماثل ، وحاشا لنا أن نكون على تلك الصفة، وهذا ما نستغفر الله منه ، غير أننا نريد لنجتهد برأينا ونشرك قارئنا فى تفكيرنا ، ونود ربط الحقيقة الواحدة بحقائق عدة ، ونفهم فهماً واعياً نتجاوز فيه سطحه إلى عمقه ، وفى هذا ما فيه من شحذ للذهن وتحريك للقدرة على الإدراك . أما نظرنا إلى جميع الآراء النظرة العجلى وتلقيها على أنها من المسلمات التى ينبغى أن تستقيم فى بديهة العقل ، فمما يفضى بعقولنا إلى الخمود والجمود، ولابد من اختلاف الناس فى منطقهم كاختلافهم فى صفاتهم وملامحهم ، والخطأ من طبيعة العقل ، وليس العلماء والصواب من قبيل اللازم والملزوم.

(١) د. محمد حسين هيكل . حياة محمد . ص٤٦٨ (القاهرة ١٣٥٤).

ونعود عودة أخيرة فى هذه التوطئة إلى أبى أيوب لنشاهده فى صورته الأخيرة ولها إطار من سور القسطنطينية ، فهناك ثقلت عليه العلة ووسد فى التراب دفينا.

وما كان الصحابى المجاهد الوحيد الذى اصطفاه الله هناك لجواره ، فها هو ذا ابن الصلاح يقول : إن أبا شيبة الخدرى مات فى حصار القسطنطينية ودفن هناك مكانه[1] ولكن هذا الصحابى لم يشتهر بذلك ولا توطدت له به منزلة ، كما هو الشأن عند أبى أيوب الذى كان موته هناك من الأسباب التى ذهب له بها صيت وارتفع ذكر بما لا يجرى مجرى المألوف لدى العرب بعامة والترك بخاصة .

وتلك ظاهرة تدفعنا دفعاً إلى متابعة البحث إلى غاياته ، رجاة الكشف عن وجه الحقيقة وإيضاح المبهم ، فعلينا بسط ما أوجزناه وتفصيل ما أجملنا ، والتأمل غير معجلين فى تلك الصور التى شاهدناها لأبى أيوب ، وكانت عنايتنا بما يحيط بها قبل عنايتنا بالتفرس فى الدقيق من سماتها .

❊ ❊ ❊

(١) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح . ص ٣٢٣ (القاهرة ١٩٣١).

العظيم من العظماء ، بصفات تجرى عليه أو أعمال تنسب إليه ، وقوام تلك العظمة إما صفة واحدة أو صفات عدة ، وعمل واحد أو أكثر . وفى حال التعدد والتشعب، يمكن تمييز الأهم من المهم ، وإفراد الأشهر الأسْير عن المعلوم ضمنا ، والنظر إلى الراجح قبل المرجوح .

وتلك حال أبى أيوب ـ رضى الله عنه ـ وهو من تميزت شخصيته بتعدد جوانبها إلى الحد البعيد ، مما يجعل واجبنا الأوجب فى تصدينا لدراستها أن نكون على ذكر من تلك الحقيقة السالف ذكرها والتى لا يجمل بنا بحال إغفالها .

فأبو أيوب من نزل عليه النبى ﷺ حين قدم المدينة من الهجرة[١] أى أن سيد المرسلين وخير البشر حل عليه فى داره ضيفا ، وهذا أول وأهم ما رفعه إلى أوج الشرف والرتبة التى لا غاية بعدها لآمل ، كما جعله صاحب الشهرة المستفيضة بذلك والصيت البعيد . ويسميه الترك (مهماندار رسول) ومهماندار فى الفارسية بمعنى المضيف .

وللضيافة معان للنفس تتداعى قلما تضارعها فى سموها معان لكلمة غيرها ، وهذا ملحوظ لدى كل من توفر على دراسة الآداب الإسلامية. ولإيضاح ذلك نضرب أمثلة أولها قوله عليه الصلاة والسلام (أيما مسلم ضاف قوما فأصبح الضيف محروما ، فإن نصره حق على كل مسلم حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله) .

فهذه أكرم دعوة إلي الضيافة وفيها إلزام لكل مسلم بأن يشارك أخاه المسلم فى بذل القرى للضيف إن عدم الوسيلة إلى أن يكون له مكرما ، كما أوصى عليه الصلاة والسلام من نزل عليه الضيف بأن يرعى جانبه ويسلك معه مسلك المجاملة ، وعد ذلك من السنة وهو يقول (إن من السنة أن يمشى الرجل مع ضيفه إلى باب الدار).

وقال الشاعر :

وإنى لعبد الضيف من غير ذلة   وما فىّ إلا تلك من شيمة العبد[٢]

ويقول المثل الفارسى (الضيف هدية الله)[٣] وفى المثل التركى (للضيف الرعاية كل الرعاية)[٤].

---

(١) السيوطى : إسعاف المبطأ برجال الموطأ ، ص٩ (القاهرة).

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ص٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٤٠ ، المجلد الثالث (القاهرة).

(٣) مهمان هدية خداست.

(٤) مسافرك اك يوكسك خاطرنى صايمق لازم در .

والمثل الأول يؤكد ضرورة الاحتفاء بمقدمه وإكرامه على أنه مظهر من مظاهر التقوى، أما الثانى فمتضمن معنى المروءة والأريحية .

وهذا شاعر فارسى من أهل القرن الرابع الهجرى يتجاوز ذلك كله إلى غاية أبعد بقوله:

(إذا قدم عليك ضيف عدوا كان أو صفياً ، فلتكن فى ليلك ونهارك به حفياً)[1] .

فكأن الضيف مكتسب مثل هذا الحق من حيث كونه ضيفاً ليس إلا ، وتلك الحقيقة تقطع النظر تمام القطع حتى عن كونه من الأعداء أو الأصفياء ، ولا غاية وراء ذلك فى الدعوى إلى رعايته مع كظم الغيظ وكبح جماح النفس وهى فى العارم من ثورتها تنسى إنسانيتها ، كما يضعف عن تمييز الصالح من الطالح .

وللأمير عنصر المعالى (المتوفى عام ٤٦٢ هـ) . وهو من أمراء الدولة الزيارية كتاب بعنوان (قابوسنامه) أى كتاب قابوس ، وقد ألفه ليهديه إلى ولده وخليفته الأمير ، وغايته أن يبذل له النصح ويعلمه مكارم الأخلاق . وينعقد الباب الثانى عشر من هذا الكتاب على الضيافة ، وفيه يقف من ولده موقف الناصح المرشد فيقول :

فى أوان الفاكهة قدم الفاكهة قبل الأكل ليأكلوا منها ، ثم توقف ساعة ، أحضر بعدها الطعام للضيفان ، ولا تجلس ما لم يقولوا لك اجلس ، وقل لهم دعونى أخدمكم . أما إذا ألحوا فى طلب جلوسك معهم فاجلس على أن تكون أدناهم[2]، فبمثل تلك المبالغة فى إكرام الضيف ينصح الأمير الفارسى ولده رجاء أن ينشأ على ما يرتضيه له من خلق سوى يؤهله للإمارة من بعده . وكأن بلوغ الغاية فى التواضع للضيف وشدة الرغبة فى خدمته ، فضيلة يجب للأمير الصغير أن يروض عليها نفسه ، وهو يشكل له كيانه الخلقى الذى يعده ذخرة إذا ساس الناس فى مقبل الأيام.

أما خبر أبى أيوب الأنصارى مع ضيفه العظيم ﷺ ، فمجمله أنه لما قدم المدينة مهاجراً من مكة ، اقترعت قريش أيهم يؤويه ، فقرعهم أبو أيوب[3] وأقام عنده شهراً حتى بنى المسجد ومساكنه حوله[4] .

قال أبو أيوب : لما نزل رسول الله بيتى نزل فى السفل وأنا وأم أيوب فى العلو ، قلت له يا نبى الله بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ،

(١) كرادوست مهمان شود يانه دوست   شب وروز تيمار مهمان براوست
(٢) أمير عنصر المعالى : قابوسنامه ، ص ٣٩ و ٤٠ (لندن ١٩٥١).
(٣) ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة ، ص٤٣ (القاهرة ١٩٣٩).
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ص٥٧ جـ٧ (بيروت ١٩٦٦).

فاظهر أنت وكن فى العلو وننزل نحن فى السفل .

فقال : يا أبا أيوب ، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .

قال فكان رسول الله ﷺ فى أسفله وكنا فوقه فى المسكن . فلقد انكسر حب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رسول الله منه شئ فيؤذيه[1] وأمر النبى بمتاعه أن ينقل ومتاعه قليل[2].

ثم يتابع أبو أيوب حديثه فيقول : وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلا أو ثوما فرده ولم أر ليده فيه أثرا . قال فجئته فزعا فقلت : يارسول الله بأبى أنت وأمى . رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك . وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة . قال : إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجى ، فأما أنتم فكلوه . قال فأكلناه ولم نصنع له هذه الشجرة بعد[3].

ومما يشبه الصدى لما كان من حسن صنع أبى أيوب ، ما يرويه صاحب البداية والنهاية من أن أبا أيوب قدم البصرة وابن عباس نائبها ، فخرج له ابن عباس عن داره وأنزله بها . ولما حان انصرافه عنها خرج له عن كل ما حوته ، كما وهبه تحفا وأربعين عبداً إكراما لأنه أنزل الرسول فى داره وكان ذلك من أعظم الشرف له .

ومما يحيط تلك الدار بهالة من القداسة ويرفعها فى الخيال إلى أبعد الآفاق ، ما يروى فى تواريخ القدماء من أن ملكا من ملوك اليمن فى سالف الدهر أوغل فى أرض الحجاز فسمع هناك من جماعة من العلماء والحكماء أن الله سوف يبعث خاتم الأنبياء فى مكة ، وسيرحل منها إلى يثرب ويبقى بها إلى أن ينتقل إلى دار القرار . وما عرف ذلك من فى حاشية الملك من العلماء حتى بسطوا إليه رجاء أن يسمح لهم بالمقام فى تلك الأرض ويبنى لكل منهم دارا . وكان أملهم أن يلتقوا بالنبى ويخبروا ملكهم بذلك . وصادف رجاء العلماء من الملك أذنا واعية وقلبا رحيما فابتنى لهم الديار ، وبينها دار ليقيم فيها النبى بعد هجرته من مكة . وكان هذا الملك يعمل بما جاء فى الزبور ، واستدعى ذات يوم رئيس العلماء وقال له إنه يؤمل إدراك النبى ، ثم دفع إليه رسالة طلب أن يسلمها إلى من جاءوا بعده الواحد تلو الآخر حتى تصل إلى يد الرسول ﷺ . وهو القائل فيها :

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ص٤٩٨ القسم الأول (القاهرة ١٩٥٥).
(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ، ص٤٢٥ القسم الثانى (القاهرة ١٩٥٣).
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، ص ٤٩٩ القسم الأول (القاهرة ١٩٥٥).

(أما بعد ، يامحمد فإنى آمنت بك وبربك ورب كل شئ وبكل ما جاءك من ربك من شرائع الإسلام والإيمان . وإنى قلت ذلك فإن أدركتك فيها ونعمت ، وإن لم أدركك فاشفع لى يوم القيامة ولا تنسنى فإنى من أصل الأولين وبايعتك قبل مجيئك وقبل أن يرسلك الله ، وأنا على ملتك وملة إبراهيم عليه السلام)(١).

وتمضى هذه الرواية إلى أبعد من ذلك فيؤخذ منها أن الدار التى ابتناها ملك اليمن للنبى أصبحت دار أبى أيوب ، كما أنه ﷺ تسلم الرسالة من يده رضى الله عنه ، وقال (مرحبا بتبع الأخ الصالح) . كما قيل إنه نهى عن سب تبع لأنه كان من المؤمنين .

ويقول البيضاوى فى تفسيره إنه تبع الحميرى الذى قاد الجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند ، وكان مؤمنا وقومه كافرين ، وعنه ﷺ أنه قال : ما أدرى أكان تبع نبياً أم غير نبى(٢).

أما فى شرح قصيدة نشوان الحميرى المعروفة بخلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة ، فهو على التحديد أسعد تبع الملك العظيم والشاعر الفصيح والعارف بأحكام النجوم ، الذى نهى النبى عن سبه وأخبر بالنبى فى قوله(٣) :

شهد ارتباطاً على أحمد أنه	رسول من الله بارى النسم
فلو مد عمرى إلى عمره	لكنت وزيرا له وابن عم
وألزمت طاعته كل من	على الأرض من عرب أو عجم
وأجعل نفسى له جنة	وأفرج عن صدره كل غم
نبى وجدناه فى كتبنا	به يهتدى وبه يعتصم

ويبين إذن مما تقدم أن ضيافته ترتبط أن محكم العرى بخطير من الأحداث عجيب ، ولا جرم أن من يوفق إلى رفع اللبس عنها والوقوف على كنهها ، يعلم حقيقة الحقائق وسر الأسرار ويتحف العلم بمزيد وجديد . أما إذ لابد من الإدلاء برأى فى أمر تبع ، فالذى يؤخذ من بعض القول عنه ومن قوله عن نفسه ، أن الغيب تكشف له عن بعثة خير الأنام، ونحن على حجة من قوله إنه كان مؤمنا وقول الرسول عنه إنه كان مسلما وذكره فى شعره أنه عرف خبر النبى فى الكتب، وذلك بقطع نظرنا عن علمه بأحكام النجوم وقدرته على معرفة ما سوف يقع فى مقبل الأيام.

(1) Ogut : Meshur Sultan Eyyub. ss 72, 73 (Istanbul 1957).

(٢) البيضاوى : تفسير البيضاوى ، ص٦٥٧ (القاهرة ١٩٤٧).

(٣) نشوان الحميرى : ملوك حمير وأقيال اليمن ، ص١٢٢ (القاهرة ١٣٧٨).

ومن الرواة من ذكر المعجزات والأعاجيب التى وقعت لأبى أيوب أثناء نزول النبى ضيفا عليه ، كأن يقول إنه ﷺ أمره بأن يضيف ستين رجلا معه ، وصدع أبو أيوب بما أمر، وقدم الضيفان وأصابوا من الطعام ما أشبعهم . ودعا الرسول ستين غيرهم ، كما دعا أبو أيوب مثلهم فى عددهم ، فوجدوا جميعاً ماسد جوعتهم.

والمستفاد من هذا الخبر أن الله جل جلاله أراد أن يظهر للناس كيف يغمرهم ببركاته وخيراته ويشملهم بسوابغ نعمه. فقد أكرم من أكرم مثوى رسوله، والبركة لغة هى الزيادة، وقد بارك لأبى أيوب فى رزقه، وهو القدير على أن يبسط الرزق لمن يشاء . وهذا المظهر العظيم من مظاهر قدرته وجد السبيل إلى المثول لدى من يشاهده بفضل لا يجحد من تلك الضيافة المباركة.

ونعود إلى ذكر بيته لنجد من يشير إليه بعد بأكثر من ألف سنة وهو ابن العماد المتوفى عام ١٠٨٩ هجرية ، فهو القائل إن موضع بيته الذى أقام رسول الله فيه ، مدرسة تسمى الشهابية ، كما أن فيه موضعًا يسمى المبرك ، والمراد بذلك مبرك ناقته ﷺ(١).

ومحصل القول فى هذا كله أن تلك الضيافة رفعت أبا أيوب مكانا عليا وجعلت له الصيت الخفاق فى جميع الآفاق، كما كان لها الرجحان على كل ما له من مناقب ومحامد. ولكن مما لا يحتمل شكا ولا تأويلا أن أبا أيوب عند الترك أعظم قدراً وأنبه ذكراً، وله اسم معروف فى تاريخهم دائر على ألسنتهم .

فهو الصحابى الأشهر والولىّ الأعظم . وإذا ذهبنا نتلمس لذلك سبباً عرفنا أنه دفن فى أرضهم وأقيم له ضريح ومسجد ملء عيونهم وقلوبهم ، وارتبط مسجده كما سنعلم من بعد بتواريخ سلاطينهم . كما أطلق اسمه الكريم على حى من أحياء القسطنطينية مدينتهم.

ومن حيث كان الشعر تعبيراً عن النفس المتأثرة حتما فى عمقها بما يموج خارجها من حولها، وتفسيراً لمعانى الحياة التى تتداعى بما يشاهده الإنسان ويفكر فيه ، كان الشعر مرجعاً من مراجع التاريخ له أهميته وشاهداً له حجيته .

فهذه منظومة لأميرة من أميرات آل عثمان تسمى (عادلة سلطان) ، وسلطان لقب يطلقه الترك على كريمات السلاطين ، وكانت مستفيضة الشهرة بتقواها وسخائها وأشعارها الجياد التى يجمعها ديوان يقول أحد أصحاب تراجم البلغاء إنه شاهده(٢) وكانت وفاتها فى عام ١٣١٦ هجرية.

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ص٥٧ جـ١ (القاهرة ١٣٥٠).

(٢) بروسه لى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى . ايكنجى جلد ص٣٢٥ (استانبول).

وهى فى المنظومة تصف هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وما كان من نزوله بدار أبى أيوب ثم تختمها بخبر خروجه إلى القسطنطينية غازيا وانقطاعه فيها إلى دار البقاء . ونعرض لها فى الشكل والمبنى قبل المضمون والمعنى، فنقول إنها مما يعرف عند الترك والفرس بالمثنوى نسبة إلى كلمة مثنى ، ويعرف عند العرب بالمزدوج ، وشرطه أن يكون الشطران من روى واحد لا يلتزم فى بقية المنظومة . وقد نظم الترك والفرس فيه شعرهم القصصى لأنه أطوع ما يكون للشاعر وأعون على امتداد النفس واتساع الأفق(١) .

وكان للأميرة حافز على النظم فى هذا الغرض من تقواها ، وباعث فى الصميم من قلب طهور رققه حب الرسول الكريم ومن يتصل منه بسبب . ولا بدع فى ذلك ، فإن الترك ساروا بسنة الإسلام على الطريق الأقوم ، والنبى عندهم بأعظم منزلة وأرفعها ، وهم يحبونه حبا صوفيا لأنه عشق الذات العلية وكان أكرم عشاقها ، وفى شعرهم يرمزون بالإسراء والمعراج إلى النفس الإنسانية فى سموها صعدا إلى الله(٢) .

وذكره ﷺ يفضى إلى ذكر مضيفه ، وإلى وصف هجرته وما تتسع معانيها له من كل ما يوحى به العزم على المضى قدما فى سبيل الحق ، والاهتداء بنور الإيمان فى مدلهم الخطوب ، والصبر وهو مرير على الأذى ، والرغبة الحكيمة فى إعلاء كلمة الله ، حتى قال من قالوا :

طلـع البـــدر علينا   من ثنيـــات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعـــا للــه داع
أيها المبعـــوث فينا   جئت بالأمر المطـاع

على ما ماجت به قصة الهجرة ومقدم النبى إلى المدينة من أحداث هى أشبه شئ بموجات من ضياء تغمر القلوب المؤمنة والعقول المفكرة ، وها هى ذى الأميرة عادلة تقول :

(سيد السادات فخر الأنبياء ، المصطفى خيرة من فى العالمين على السواء . بزغ بالسعد فى مكة هذا القمر، وفيها ثلاثة وخمسين عاما استقر. ومن بعد بالهجرة أمر ، الخير من فى المدينة من بشر. وخرج أهل يثرب له مستقبلين ،وهرع المنتظرون للقائه عجلين)(٣) .

---

(١) د. حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، ص٤١ (القاهرة ١٩٥١).

(2) Pareja : Islamologia : pp. 546, 548 (Roma 1951).

(٣) سيـد سـادات فخـــر انبيا   ايكى جهـان پادشـــاهى مصطفى
مكه ده طـوغـدى سعـادتله او ماه   اللى اوچ سال انده طـوتدى جايگاه
صـــوكره مأمـور اولـدى هجـرته   تامدينــــه خلـقى ايـــره دولتـــه
اهـل يثرب چيقـدى استقبالنـــه   منتظــرلر قوشـــدى استعجالنـه

والشاعرة تجرى على مألوف شعراء الترك فى وصفه عليه الصلاة والسلام، وهم بالنزعة الصوفية متأثرون ، غير أنها لم تلف لفهم فى شدة ولوعهم بالبديع وإفراطهم فيه كذلك الإفراط فى التزيين الذى كثيرا ما يشوه من الحسن . وما حاولت البلاغة إلا فى قولها بزغ القمر ، فالفعل بزغ هنا يحتمل أن يكون فى التركية بمعنى ولد ، والقمر هو الرسول على التشبيه ، ولشعراء الصوفية كلام لا يحمل على ظاهره ، فالحبيب الذى يبهر البدر حسنا هو الذات الإلهية فى المعنى البعيد الذى يقصدون .

ثم تبدأ فى السرد القصصى ، وتذكر الحقائق على التحديد ، وقولها منطبق على الواقع التاريخى ، لأنها تجد فيه من سمو الروحانية وجمالها ما يغنيها عن خلع وشى البلاغة عليه فى تزيينه . وتنساق الشاعرة التركية المتبتلة مع قصة أبى أيوب ، فتتجاوز مقدمتها إلى وسطها أو صميمها ، لأنه مناط عنايتها ودافعها إلى نظم منظومتها فتقول :

(ومد كل منهم إليه يد ضراعته ، قائلا : يا مقيل المسكين من عثرته إذا تقبلت منى عبوديتى ، فانزل يا قوام الدين بدرويرتى . يا من أنت للرحمة معدن وللعناية منبع ، ولعشاقك المدلهين من يشفع)[1].

وفى هذه الأبيات يغلب طبع الأميرة الشاعرة على تطبعها ، وتسيطر روحانيتها الدينية وأصالتها الشعرية على التزامها سرد الحوادث بحذافيرها وصياغة الأخبار وهى عاطل من كل حلى، فنحن لم نصادف فى أشتات الكتب ذلك الكلام الذى أدارته على لسان كل من سكن المدينة. وقد مرّ بنا قول صاحب الإصابة فى تمييز الصحابة إن الأنصار اقترعت أيهم يؤويه فقرعهم أبو أيوب غير أن قول عادله سلطان حتى ولو كان من بنات خيالها سائغ فى الذوق وعليه من زخرف الفصاحة ما يعجب ويطرب. وهى تتخيل كلاماً يحدث به النبى ﷺ نفسه، فتنهج بذلك نهج شعراء القصة من الترك والفرس فيما ينظمون، فهم يستوحون الخيال منطلقين على السجية رغبة منهم فى روعة للفن يزدان بها قصصهم الشعرى ، وإن تحفظنا هنا لنقول إن جمال وتوفيق شاعر القصة فى بليغ الأداء، مما لا نقع عليه دوماً عنده، وما ذلك إلا لأنه معجل عن التأنق فى عبارته بمحاولته حبك قصته، ولا يجمل بنا أن نطلب إليه ما يخرج عن نطاق الإمكان، وإن كان ذلك لا يعنى أننا نعدم جمال البلاغة مطلقاً فى شعر القصة عند الترك والفرس، بل قد نجد فيه الكثير من الروائع والبدائع.

---

(١) هر برى ايتــدى تضــرعله نياز ... ديوب أى بيچار كانه چاره ساز
بنــده لگــه ايـــدوب قبـــول ... خانه مه أى شاه دين ايله نزول
مرحــمت كانى عنــايت منبــعى ... عاشـــق افتـــاد كانـك اشفعى

وشاعرتنا تجرى فى عنان المجيدين وهى تقول (ثم قال بحكمته الرسول أيما مكان لناقتى فيه النزول ، أنا بداره أحل ، وبها كالبدر المطل ، ولما كان فى يد جبريل الأمين الزمام ، أصبح هنالك المقام . خالد بن زيد الأنصارى هذا الرجل ، وهو مضيف سيد الرسل . وبذلك الشرف نال السؤدد ، وغبطه على ذلك من أصحابه كل أحد . لا سبيل إلى وصف عظمته ، إنما الضيافة سرّ عزته . كان لوجه جمال الله عاشقاً ، عليم القلب بالنار محترقا)[١] .

وعلى هذا النحو تبرز الشاعرة أخص صفاته ، وتميزه بما أذاع له بعيد الصيت عند الترك خصوصاً ، وهو تلك الضيافة الكريمة التى ارتبطت بمشيئة البارى جل وعلا ، وتمت بما ذكر من عطف جبريل زمام الناقة نحو دار أبى أيوب. والأميرة ظاهرة التأثر بثقافتها الإسلامية والتصوف أهم عناصرها ، فهى تنظر إليه نظرتها إلى صوفى واصل قلبه مصدر معرفته وعشقه لجمال الذات الإلهية ، وتلك غاية الغايات فى روحانية البشر .

ونجتزىء بهذا القدر من تلك المنظومة فى تبين ما شئنا أن نتبينه ، ونرجئ النظر فى بقيتها إلى موضع آخر .

وهذه قصيدة عربية يقول جمال اوكوت إنها لشيخ من شيوخ الإسلام فى تركيا[٢] ويؤخذ من قوله أنه من أهل القرن السابع عشر للميلاد . ويذكر المؤلف أنها مرقومة على لوحة رخامية فى جدار ضريحه باستانبول .

والمتعارف أن بعض شعراء الترك الأقدمين نظموا بالعربية ، وذلك لأن العلم بالعربية والفارسية إلى جانب التركية كان ضرورة ثقافية عندهم لا غنية لهم عنها للإحاطة بالأصول والفروع والقدرة على معرفة مطارح الإساءة والإحسان[٣] وحقيق بالذكر أن شعرهم العربى فى جملته لم يكن متين السبك ولا مشرق الديباجة لأنهم نظموه تطبعاً لا طبعاً للتباهى بأنهم يملكون ناصية لغة القرآن . فكأن النظم بالعربية يشهد لشاعر الترك بعلو الكعب واتساع الباع كما أنهم كانوا ينظمون بها فى أشرف الأغراض على أنها لغة شريفة . ومدح أبى أيوب

---

(١) صوكره حكمتله بويوردى أول رسول ... هانكى جـايه ناقه م ايـلرسه نزول
بن دخى اول خانه نك مهمـانى يم ... او كـوزل اوجـك مـاه تابـانى يـم
ناقـه دارى چـونكه جـبريل امـين ... چكـدى بيـت خـالده قيلـدى مكين
خالـد بن زيـد انصـارى بـودر ... هم رسـول الله مهمـا نـدارى بودر
بوشـرفله بولـدى غايـت امتيـاز ... جمـله اصحـاب او لدى غبطـه سـاز
قابـل تعريـف اولـماز دولـتى ... مهمـان دار لقـدر آنـك عـزتى

(2) Ogut : Meshur, Sultan S 63 (Istanbul 1957).

(٣) د. حسين مجيب المصرى : فى الأدب الإسلامى ، ص٨ (القاهرة ١٩٦٧).

بقصيدة عربية لشاعر تركى مصداق لذلك ، وهو أهل العلم من المسلمين وهم على علم بالعربية من مطالعتها لإدراك العالى من معانيها . وهذه أبيات منها :

أكـــرم أبا أيـــوب عـــبدك خالدا	يا رب فى جنـات خـلدك خـالدا
الله شـــرف قـــدره فأنـــاخ فى	مأواه راحـــلة النبى المفتـــدا
آوى النبـــى المصـــطفـى متبوءً	فى الدار والإيمان فى هـدى الهدى
هو كان من حيث الإضـــافة سابقاً	من سـادة نصـــروا النبى محمدا
نعم الإضـــافة والضيـــافة حبذا	ضيـــف كريـــم الخلق فياض الندا
فأقـام بالبركـات سبـعة أشـــهر	فى داره حـتى أتم المســـــجدا
بالليـــل كان يطــوف حول جنابه	حفظـا له بســـلاحه متقـــلدا
فدعى له فخـــر الورى فلأجـــله	حيـــا وميتـــا صين من كيد العدا

فهذا شعر عربى ضعيف الأداة قلق التراكيب بالقياس إلى الرقيق الأنيق من شعر العرب ، ولكنه مقبول لا غبار عليه فى نظر العربى من شعر الترك . وإذا عقدنا الموازنة بينها وبين منظومة الأميرة عادله ، لتبين لنا أن المنظومتين تصيبان صفة أبى أيوب رضى الله عنه كمضيف للرسول ﷺ، وتعلنان هذه الصفة على أنها أظهر ما له من مناقب وأول ما ينوه به من فضائل تجعله أهلا للثناء عليه بكل جميل ومدحه أبلغ المدح . ولكن شيخ الإسلام يقف من هذا الصحابى الجليل موقف المؤرخ ليس إلا ، ثم يدعو بالنصر فى الأبيات الأخيرة لصاحب عصره وهو السلطان عثمان الثانى المتربع على عرش آل عثمان عام ١٦١٨ ميلادية ، ويترحَّم على والده السلطان أحمد ألأول ، ويقول فى البيت قبل الأخير :

هو حـامل للواء أشرف مرسل	يا رب تحت لوائه ابعث أسعدا

فهو يجعل تلك القصيدة شعراً من شعر المناسبات بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معنى . وهذا ما جعل شعر شيخ الإسلام ينحط بجلاء فى جمال الشاعرية وسمو الروحانية عما بلغه شعر الأميرة فى علو المستوى . والفرق بينهما هو الفرق بين وثيقة تاريخية وتحفة فنية . فما أجمل أن تمهد الشاعرة بذكر هجرة النبى ﷺ، وتنظر إلى أبى أيوب على أنه العاشق الإلهى. ولكن الدعاء لسلطان العصر بالنصر ولأبيه بالرحمة فى ختام القصيدة العربية ، مما يتأذى به ذوق الذواقة ، لأنه إقحام عنيف للدنيا فى الدين ، وخلط لبأس السلاطين وصولتهم بما نعرف من تناهى الروح فى سموها عند النبى والصحابى .

ونقف وقفة عند آخر بيت أوردناه من قصيدة شيخ الإسلام لنجده يقول عن مولاه السلطان إنه حامل لواء الرسول ﷺ . فهذه القولة تجيل فى خاطرنا شعراً تركياً يجعل من

أبى أيوب الأنصارى من يحمل علم النبى ﷺ .

ومبلغ علمنا أن أبا أيوب لم يكن حامل العلم، فما وجدنا هذا فيما بين يدينا من الكتب الأمهات. ولننظر فى بيتين للسلطان سليم الثالث المتوفى عام ١٨٠٨ للميلاد . وهذا السلطان فنان مطبوع ، فهو شديد الولوع بالموسيقى ملحن له من الألحان ما يعلو به إلى منزلة مرموقة بين الملحنين الأتراك.

كما أنه شاعر رفيع الطبقة ، واسمه الشعرى المستعار (إلهامى)[١] فكل شاعر تركى قديم يتخذ له اسماً أدبياً مستعاراً يسمى (مخلص).

وهو يوجه خطابه إلى أبى أيوب على أنه ولىّ مقبول الشفاعة عند الله فيقول :

(أنت حامل العلم الكريم لسيد المرسلين، فبحق البارى ألا كنت على الدوام لى المعين. وسليم (إلهامى) يعفر على تلك الروضة الطاهرة الجبين ، جد بالشفاعة يا أبا أيوب الأنصارى)[٢].

ونعود إلى الأميرة الشاعرة لنرخى نظرة فى منظومة أخرى تخصها بأبى أيوب من ألفها إلى يائها ، مصرحة بأنها تضرع إليه أن يكون إلى الله وصلتها ووسيلتها ليشفع لها عنده ، فهو مقبول الشفاعة بفضل ماله من علو المنزلة لدى رب العالمين وهى فى استشفاعها أبا أيوب عند الله تذكره بكل خير وصالح، مطنبة فى فضائله مثنية على أخلاقه معلنه ما له من فضل وهو كبير . وحسبنا أن نختار أبياتاً معدودات من منظومتها نستشهد بها على ما يعنينا فى هذا الصدد . تقول الأميرة عادله :

(هو ذا اللطف والكرم ، أبو أيوب الأنصارى ، ومن حمل للنبى العلم ، أبو أيوب الأنصارى . الكافر بفضل منه مقهور ، ولواؤه الطهور منصور ، فخفق قلب المسلمين بالحبور ، أبو أيوب الأنصارى . اشفع لنا وارع أمرنا ، وعلى الله دلنا ، وأفعم بالرقة قلبنا، أبو أيوب الأنصارى)[٣]، فيتحصل من هذه الأبيات والبيتين الآنف ذكرهما والبيت

---

(1) Kocaturk : Osmanli Padisahlari. SS 228, 229 (Istanbul).

(٢) علمدار كريم شاه اقليم رسالتسك — معينم اول بنم دائم بحق حضرت بارى
سليم الهامى هردم يوز سوره ر بو روضه پاكه — شفاعتله كرم قيل يا ابا ايوب الانصارى

(٣) بودر لطف كرمكارى — أبا أيوب الأنصارى
رسول اللهك علمدارى — أبا أيوب الأنصارى
ايدوب كافر لرى مقهور — لواى پاكيدر منصور
مسلمانلر اولوب مسرور — أبا أيوب أنصارى
شفاعت قيل عنايت قيل — بزى حقه دلالت قيل
درونم پر لطافت قيل — أبا أيوب أنصارى

الذى صادفناه فى القصيدة العربية ، أن هذا الصحابى كان يحمل علم الرسول ﷺ . وقد أسلفنا أننا لم نجد لذلك من التاريخ سندا.

غير أن اوكوت لا يخامره الشك فى أن أهل استانبول وما يجاورها من المؤمنين يعتقدون اعتقاداً جازماً أن أبا أيوب سوف يكون حامل علمهم يوم القيامة . والكاتب ينسب هذه العقيدة إلى حديث جاء فيه قوله عليه الصلاة والسلام (ما من أحد من أصحابى يموت بأرض إلا بعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة)[1].

ونحن نتلقى هذا التعليل بتحفظ لما فيه من ظاهر التحكم ، فليس حتما أن يكون الدليل المرشد حاملا للعلم فى الحرب ، وهذا الحديث لا يحتمل التأويل على هذا النحو ، كما لا ينصرف معناه إلى عدّ أبى أيوب حاملا للواء النبى كما جاء صراحة فى الأشعار التى جعلناها موضع نظر . ولو صح أن يكون تأويل هذا الحديث سبباً لتسمية أبى أيوب حامل علم رسول الله ، لما جاز أن نغفل ذكر الحقيقة التاريخية التى لا تؤيده .

ولعل كلا من السلطان سليم الثالث والأميرة عادله قد اضطر إلى استخدام كلمة (علمدار) بمعنى حامل العلم بدلا من (مهماندار) بمعنى المضيف لتكون (مفاعيلن) فى بحر الهزج الذى نظم فيه شعره . كما أراد شيخ الإسلام أن يذكره حاملا للواء النبى ليأتى بـ(متفاعلن) فى قصيدته من بحر الكامل .

وهنا نقول إننا اطلعنا على تلك الأشعار المتعلقة بأبى أيوب فى كتاب جمال اوكوت لانقطاع وسيلتنا إلى الاطلاع عليها فى مظانها .

ونحن إنما نقلب فى الأمر ما يحتمله من وجوه الرأى لأننا عدمنا الدليل النقلى عليه، وحسبنا أن نقول إن أبا أيوب قد عرف عند الترك بما لا يعرف به عند العرب فيما يتعلق بحمله لواء الرسول ﷺ. وليس فى مكنتنا أن نعرف مؤول ذلك الحديث بما عرفه الترك دون العرب .

❊ ❊ ❊

(1) Ogut : Meshur Eyyub Sultan S 106 (Istanbul 1957).

الفصل الثالث : المحدث

هو صاحب لنبينا ومصاحب كم من حديث عنه يروى مسندا

هذا بيت من قصيدة أسعد أفندى شيخ الإسلام فى عهد السلطان عثمان الثانى التى سبق أن نظرنا فى أبيات عدة منها ، ويستقيم فى العقل بداهة أن يكون صاحب الرسولﷺ ومصاحبه راوية للحديث ، غير أن أبا أيوب كان إلى هذا من أهل الصفة كما يقول صاحب حلية الأولياء[1]. وأهل الصفة جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا ملازمين لمسجده يتعبدون فيه قاطعين ما بين الدنيا وبينهم من أسباب ، وقيل إن الله عز وجل عاتب نبيه بقوله : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه﴾ ، كما أثنى الرسول الكريم عليهم الثناء كله. قيل إنه وقف عليهم فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم، فقال أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضياً بما فيه ، فإنه من رفقائى فى الجنة[2] ولما اختلف المختلفون فى نسبة الصوفى ، رأى بعضهم نسبته إلى أهل الصفة[3].

وعلى ذكر أهل الصفة نقول إنهم كانوا يصحبون النبى ويلزمون مجالسه ويحفظون عنه كل ما قال وما عمل ثم يحملون هذه الأمانة ليؤدوها إلى الناس ، ومنهم أبو هريرة الذى كان أكثر الصحابة حديثاً عنه عليه الصلاة والسلام، كما كانوا معه إذا ارتحل عن المدينة غازياً أو حاجاً ، فما خفيت عليهم شاردة ولا واردة من أمره[4].

ولما بينه وبين النبى من طول صحبة ووثيق صلة ، تأتى له أن يطلع على الخاص من شأنه ويعلم عنه ما لا علم لغيره به ، فكان بالتالى صائب الرأى صحيح الحكم . ونضرب لذلك مثلا ما ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية من أنه القائل لزوجته أم أيوب حين قالت له: أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ؟ فقال : أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ فقالت : لا والله ، فقال والله لهى خير منك .

وهذا متعلق بحديث الإفك ، وصفوة القول فيه ، أن عائشة زوج النبى ﷺ كانت معه فى غزوة ، وساق رجل بعيرها وهو يظن أنها فى هودجها ، وما علم أنها ذهبت لقضاء حاجة ، فتجاوزت العسكر وفى عنقها عقد فانتثرت حباته ولا تدرى ، ورجعت تلتمسه حتى وجدته غير أنها لم تجد فى العسكر أحداً ، واضطجعت فغلبتها عينها ونامت ، وقدم من

---

(١) أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء ، ص٣٦١ (القاهرة ١٩٣٢).

(٢) الهجويرى : كشف المحجوب ، ص٩٧ (إيران ١٣٢٦).

(٣) د. قاسم غنى : تاريخ تصوف دراسلام ، ص٣٨ جلد أول (طهران ١٣٢٢ شمسى).

(٤) سليمان الندوى : دفاع عن الحديث النبوى ، ص١١ (القاهرة).

يسمى صفوان بن المعطل وكان ساقة الجيش، فاسترجع لما رآها ، وهبت من نومها وخمّرت وجهها . ولم يسألها عن شئ بل أناخ بعيره حتى ركبت وقاد بها حتى أتى العسكر.

فانطلقت ألسنة السوء وقال أصحاب الإفك أى الكذب ما قالوا . وخاض فى هذا الإفك من الرجال ابن أبيّ وابن أثاثة وحسان بن ثابت ومن النساء حمنة بنت جحش . واسشار صلى الله عليه وسلم فى فراق عائشة . وبعد شهر أو ما يقرب دخل عليها ضاحكا وهو يقول : يا عائشة إن الله قد أنزل براءتك . فأنزل الله تعالى فى سورة النور ﴿**إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم**﴾ ثم خرج إلى الناس وتلا عليهم ما نزل عليه فى براءة عائشة رضى الله عنها[١] وخاتمة القول فى حديث الإفك أن من يدعى عبد الله بن سلول كان موغر الصدر على النبى ﷺ وما فتيء يكيد له ، وكان ذلك دأبه منذ وافى النبى ﷺ المدينة ، وعرف أنه عقد أمله بأن يكون ملكا عليها ، ولذلك تلقف هذا المنافق تلك الحادثة وأضاف إليها ما أضاف من مفتريات كأن يقول للناس : إنى أقسم لكم أنها ما نجت منه وما نجا منها[٢] . إلى أن حصحص الحق ، وبان كيد المرجفين والمبطلين وبرءت عائشة بفضل ربها أكرم البراءة.

ومن نظر فى هذا كله أدنى النظر علم علم اليقين وجوب أن يكون أبو أيوب الأنصارى من المحدثين . غير أنهم يختلفون كثيراً فى عدد ما ينسب إليه من أحاديث ، وفى الإمكان حصر عدد تلك الأحاديث بين مائتين وعشرة عند من نسبوا إليه العدد الأكبر ، وثلاثة عشر عند من نسبوا إليه العدد الأصغر.

ونبدأ بذكر بعض من أحاديثه التى رواها وهو غاز فى بلاد الروم . قيل إن عقبة بن عامر وهو فى القسطنطينية صلى المغرب فأخرها . فقال له أبو أيوب : يا عقبة أتؤخر المغرب هذا التأخير وأنت من أصحاب رسول الله فيراك من لم يصحبه فيظن أنه وقتها . فقال من يدعى أبا عمران لأبى أيوب : فمتى وقتها ؟ فقال كنا نصليها حين تجب الشمس نبادرها طلوع النجوم.

وقال بعض مجاهدى المسلمين فى القسطنطينية ، إن جمعا عظيما من الروم خرج على المسلمين ، فحمل أحد المجاهدين على الروم ودخل فى صفوفهم ثم خرج . وما شاهده من كان معه من المحاربين حتى صاحوا قائلين: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة .

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ، ص٢٠٦ و٢٠٧ و٢٠٨ و٢٠٩ جـ١ (القاهرة ١٩٤١).

(٢) نصر الله خليفة : حديث الإفك ، ص٧٤ و ٨١ (القاهرة).

فقام أبو أيوب قائلا : أيها الناس إنكم لتأولون هذه الآية على هذا التأويل ، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار ، فلما أعز الله دينه وكثر ناصريه . قلنا فيما بيننا بعضنا لبعض سرا من رسول الله ، إن أموالنا قد ضاعت فلو أنا أقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها . فأنزل الله فى كتابه يرد علينا ما هممنا به ، **﴿وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** . فكانت التهلكة أن نقيم فى الأموال ونصلحها ، فأمرنا بالغزو.

وقد فسرت التهلكة على وجوه شتى ، فالراغب الأصفهانى فى مفرداته يجعل الهلاك افتقاد الشئ عنك وهو عند غيرك موجود كقوله تعالى **﴿هلك عنى سلطانيه﴾** وهلاك الشئ باستحالة وفساد كقوله **﴿ويهلك الحرث والنسل﴾**. والهلاك الموت **﴿إن امرؤ هلك﴾** . وقال تعالى مخبرا عن الكفار **﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾** ،ولم يذكر الله الموت بلفظ الهلاك . كما أنه بطلان الشئ من العالم وعدمه رأسا وذلك المسمى فناء المشار إليه بقوله **﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾** ، ويقال للعذاب والخوف والفقر الهلاك ، وعلى هذا قوله وما يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . إلى أن قال الراغب الأصفهانى إن التهلكة ما يؤدى إلى الهلاك. واستشهد بقوله تعالى **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾**[(١)] .

وفسر الجلالان التهلكة فى هذه الآية بأنها الهلاك بالإمساك عن النفقة فى الجهاد أو تركه لأنه يقوى العدو على المسلمين[(٢)] وعند النسفى أنها ترك النفقة فى سبيل الله لأنه سبب الهلاك ، أو عن الإسراف فى النفقة حتى يفقر الإنسان نفسه ويضيع عياله ، أو عن الإخطار بالنفس ، أو ترك الغزو الذى هو تقوية للعدو[(٣)] .

أما البيضاوى فيفسرها بالإسراف وتضييع وجه المعاش أو الكف عن الغزو والإنفاق فيه لأن ذلك يسلط العدو على إهلاك المسلمين . ثم يقول : ويؤيده ما روى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهلينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت . أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدى إلى الهلاك[(٤)] .

ويؤخذ من هذا أن أبا أيوب أحسن صنعا بإيضاح معنى التهلكة لأصحابه الذين شاءوا أن ينصرفوا عن خوض الغمرات جهلا منهم بالمعنى الأصح للكلمة ، وأقنعهم بضرورة الجهاد الذى لا ينبغى تقاعسهم عنه لسبب كائنا ما كان ، فإن فى مداومتهم عليه دوامًا لبقائهم. كما أن صدهم عنه معجل محتوم فنائهم .

---

(١) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن ، ص٥٦٧ (القاهرة).
(٢) جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى . تفسير الجلالين ، ص٤٣ (القاهرة).
(٣) النسفى : تفسير القرآن الجليل ، ص١٢٥ جـ١ (القاهرة ١٩٣٥).
(٤) البيضاوى : تفسير البيضاوى ، ص٤١ (القاهرة).

وروى من قال إن مرسى فى البحر جمع بعض الغزاة من العرب وأبا أيوب ، فلما حضر الغداء أرسلوا إلى أبى أيوب وأهل مركبه ، فأتى أبو أيوب وهو يقول : دعوتمونى وأنا صائم فكان على من الحق أن أجيبكم ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن للمسلم على أخيه المسلم ست خصال واجبة ، فمن ترك خصلة منها ترك حقا واجبا لأخيه عليه ، إذا دعاه أن يجيبه، وإذا لقيه أن يسلم عليه، وإذا عطس أن يشمته، وإذا مرض أن يعوده، وإذا مات أن يتبع جنازته، وإذا استنصح له أن ينصحه(1).

وتروى عنه أحاديث متضمنة ما كان يدور بينه وبين الرسول ﷺ من كلام ، وفى هذا دلالة على أن الرسول ﷺ كان يؤثره بالبر ويبسط عليه جناحا من رعايته ، فهو القائل إن الرسول قال له (يا أبا أيوب ، ألا أدلك على صدقة يرضى الله عز وجل موضعها ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : تسعى فى إصلاح ذات البين إذا تفاسدوا ، وتقارب بينهم إذا تباعدوا(2).

ولنور الدين على الأنصارى القرافى الشافعى المتوفى عام ٩٤٠ هـ كتاب موسوم بنفحات العبير السارى فى أحاديث أبى أيوب الأنصارى ومنه نسخة مخطوطة بإحدى المكتبات فى تركيا . والكتاب قسمان أولهما فى سيرة أبى أيوب . وثانيهما فيما رواه رضى الله عنه من أحاديث النبى ﷺ.

وقد اطلع على هذا الكتاب وأفاد منه الكاتب التركى جمال اوكوت، على حين انقطعت وسيلتى إليه ، فما وجدت ندحة عن الاستفادة مما جاء فيه بالواسطة ، وأنا أنتقى منه بعض ما أورده فى كتابه التركى عن أبى أيوب من أحاديث جاعلا طائفة منها موضع نظر، ومكتفيا بإيراد طائفة أخرى على أنها من كلامه ﷺ الذى أصاب صفاته من قال : هذه البلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها . فهى إن لم تكن من الوحى ولكنها من جاءت من سبيله ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض ، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء (3).

وغير موضع ريب فى أن نسبة تلك الأحاديث إلى أبى أيوب تسمو به إلى منزلته العالية بين المحدثين ، وبذلك يتجلى لنا جانب من شخصيته التى نبذل الوسع جاهدين أن نتدبرها ونتبصرها .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص٢٦٩ و ٢٧٠ (ليدن ١٩٢٠).
(٢) أسامة بن منقذ : لباب الآداب ، ص٣٠٢ (القاهرة).
(٣) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن ، ص٣٦٤ (القاهرة ١٩٢٨).

وعنه أن الرسول ﷺ قال (عظم الأجر عند عظم المصيبة، وإذا أحب الله قوما ابتلاهم).

وهذا الحديث مذكرنا بحديث آخر يتضمن نفس المعنى ويزيده تفصيلا ، وهو قوله (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . إلى أن قال : فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة).

وقد نظم الشاعر الباكستانى محمد إقبال فى معنى هذا الحديث مهيبا بأولى الأمر من المسلمين أن يتمرسوا بالشدائد لأنها تشحذ هممهم ، وزاجرا إياهم عن أن يكونوا الناكصين على أعقابهم أمام ما يعترض سبيلهم إلى المنشود من غايتهم . كما يربأ بهم أن يفشلوا عن حقهم[1].

أمـة الإيمـان ياسـود الجلود	منكموا أستاف عطـرا للخلود
فإلام تجهـلون سـيركم	وتولـون سـواكم أمـركم
ليت شعرى هل تخافون البلاء	البلاء كان للمـرء الصـفاء

وليس ينبغى أن تفهم الدعوة إلى تحمل مكاره الدنيا والصبر على حدثان الزمان، على أنها مجرد دعوة إلى الخضوع والاستكانة والعزاء والسلوة ، بل إنها إلى ذلك حث أكيد على الانطلاق قدماً مع تعدى المصاعب وتحدى المعاطب ، وتلك نزعة الإسلام الحقة التى تصلح بها حال الحياة وتفضى إلى حياة أفضل وخير أعم ، فى إيجابية تتجافى عن كل معنى للتخلف.

وروى عنه قوله ﷺ (إنه لا يدخل النار أحد يقول لا إله إلا الله).

وهذا ذكر للتوحيد ، وما دام الشئ بالشئ يذكر ، فلنا أن نقول إن التوحيد منقسم أقساماً عدة : أولها ما يعرف بالتوحيد الإيمانى ويمكن أن يسمى التوحيد الامتثالى والتقليدى والتعبدى ، وهو توحيد المقلدين والعوام . وثانيها التوحيد الاستدلالى أو العقلى وهو علمى تحقيقى ، وهذا توحيد علماء الكلام والحكمة الإلهية ، أما ثالثها فتوحيد الصوفية ، وهو المعروف بالتوحيد الحالى والكشفى . وعند الصوفية أن حال التوحيد وصف لازم لذات الموحد ، وله نور يكشف الظلمة عن الصوفية وبذلك يشاهد الجمال الإلهى[2].

وهذه أبيات لجلال الدين الرومى المتوفى عام ٦٧٢ للهجرة ، وهو أكبر وأشهر شعراء

---

(١)

اى جهـان مومنـان مشـك فام	ازتـو مى آيـد مرا بـوى دوام
زندكـانى تاكجـا بى ذوق سـير	تا كجـا تقدير تودر دسـت غـير
زبلا ترسى ؟ حديث مصطفى است	«مردرا رووز بلا روز صفاسـت»

(٢) د. قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص٢٨٧ و ٢٨٩ (تهران ١٣٢٢ شمسى).

التصوف عند الفرس ، يعرض فيها للتوحيد هذه الصورة الرائعة المعجبة فيقول :

(وجهه واجه ومن كل صوب حولك ، فى علو وسفل لم أطلت عنه بحثك . تعلق يا صاحبى النجدة منه بالذيل ، فهو المنزه عن علو وعن سفل ، إنه معك فى المكان واللامكان على سواء ، إنه الباقى وأنت إلى فناء)[1].

فبمثل هذه الروحانية الصوفية يتجلى جمال الإيمان الموحد الذى جعل أساس إيمانه شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له . وما دام ذاكراً لهذا ، فهو ذاكر لضرورة أن يأتمر بأوامر الإسلام وينتهى عن نواهيه ، وفى هذا صلاح دينه ودنياه ، وبه يكون من أولى الألباب المستبصرة وحاشا له أن يغضب الله بخطيئة يكسبها وإثم يجترحه ، فله من إيمانه وازع ورادع.

ويتقلب فى نفس حديث آخر وهو (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن). وعنه قال. قال رسول الله ﷺ (مسئلة واحدة يتعلمها المؤمن خير له من عبادة ألف سنة).

وهنا نفسح المجال للخوارزمى ، فهو القائل إن خلاصة التوحيد فى ناحية النظر كما أن أساس الكفر والشرك فى ناحية التقليد ، وتذكر ساعة فى صنع الله وتفكر لحظة فى فعل الله أفضل من عبادة سبعمائة سنة قيام ليلها وصيام نهارها . لأن النظر يوصل العبد إلى المعرفة فيعرف الله تعالى ومن عرف الله فقد نال العز الأبدى والسعادة الكلية . فأهل الدين بالنظر يعرفون حقيقة الدين ، ولا يمكن معرفة سبيل النجاة من الهلاك إلا بالنظر عرفه من عرفه وجهله من جهله[2].

وهذا من الدليل القاطع على أن الإسلام يدعو إلى التفكر والتدبر وإعمال النظر ، فنبيه الكريم يؤثر الاقتناع بالعقل على مجرد الإيمان بالقلب ، ويرى أن تفكر ساعة خير من طول تهجد وتعبد وصيام وقيام ، إن كان العابد لا يدرك كنه العبادة ، وما ذلك إلا الجهر بالدعوة إلى حياة حرّة منطلقة ثمراتها الخير والفلاح.

ومن حيث اشتهر سلمان الفارسى رضى الله عنه بواسع علمه وكان فى ذلك مضرب المثل ، ذكره الشاعر الفارسى سنائى من أهل القرن السادس الهجرى فى كتاب منظوم له بعنوان (حديقة) ضمنه مختلف المعانى الروحية والصوفية فقال :

---

(١) روى او بين ازهمه سوروبرو — زير وبالا توچـه ميجـوئى بگو
دامن آن گـير اى ياردلـير — كومـنزه باشـد از پالاوزيـر
باتـو باشـد درمـكان — تو نمـانى او بماند جـاودان

(٢) الخوارزمى : مفيد العلوم ، ص٧ (القاهرة ١٩٠٩).

(حصل العلم كيما تحظى لدى الروح بالقبول ، ويجعل لك من الفضل فضل ذى الفضول . كان أبو لهب من أرض يثرب ، ولكن الإسلام لم يعمر منه القلب .

وكان سلمان من ديار العجم ، وطالما وضع على عتبة الدين القدم . أنت إن طلبت لنفسك علما ، طلب الرى كالظمآن دوما)[١].

وروى عن الرسول قوله (من أراد أن يكثر علمه وأن يعظم حلمه فليجالس عشيرته).

وهذا مجيل فى خاطرنا ما جرت به عادة العلماء والبلغاء من المسلمين فى النظر إلى الأسفار كمصدر له خطره من مصادر العلم . ونذكر منهم الشاعر الفارسى سعدى الشيرازى المتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى والمعدود من خيرة الشعراء وصفوة الكتاب عند الفرس . ولقد قضى شطراً كبيراً من عمره وهو على جناح سفر ، ومع أنه لم يكن رحالة بالمعنى ، إلا أننا لا نعرف من كان أكثر سياحة منه سوى ابن بطوطة[٢] وكافينا إشارتنا إلى أنه ارتحل إلى آسيا الصغرى والشام ومصر والحبشة وبلاد العرب وبلاد الترك والهند ، فعايش أقواما متباينين فى كثير وسمع منهم وأخذ عنهم ، وبذلك أحكمته التجارب وأكسبته سداداً فى رأيه وصوابا فى حكمه ، وهذا ما يستبين بجلاء فى كتابين له أحدهما منظوم يسمى (بوستان) والآخر منثور عنوانه (كلستان) . وقد تضمنا كثيراً من تجاربه التى تمرس بها فى أسفاره ، وبذلك اقتعد منزلته المرموقة كأعظم وأشهر أخلاقى فى الأدب الإسلامى.

وهذا السفر أو تلك السياحة تفضى بنا إلى ذكر الأسفار أو السياحة عند الصوفية ، وابن الجوزى يربطها بالسفر فى طلب العلم مع التمييز بينهما فى قوله إن إبليس قد لبس على كثير من الصوفية فأخرجهم إلى السياحة لا إلى مكان معلوم ولا إلى طلب علم ، وأكثرهم يخرج على الوحدة ولا يستصحب زادا ويدعى التوكل ، ويرى أنه على الطاعة وهو من العصاة المخالفين لسنة رسول الله الذى قال لا رهبانية ولا تبتل ولا سياحة فى الإسلام[٣].

وابن الجوزى يميز الفرق بين السياحة فى طلب العلم التى حض الرسول عليها

---

(١) علم خوان تات جان قبول كند — كه ترا فضـل بو الفضول كند
بولهـب از زمـين يثـرب بـود — ليك قد قامت الصـلاة نشنـود
بود سلمان خود ازديار عجم — بردردين همـى فشـرد قـدم
علم كز بهر خود كنى بردست — آب خواهد چوتشنگى پيوست

(٢) مالى (ت) سروش : حيات سعدى ، ص١٠ (إيران ١٣١٦).

(٣) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ، ص٢٩٨ (القاهرة ١٣٦٨).

وسياحة الصوفية فى غير أرب وهى التى نهى عنها .

وما دمنا قد ضربنا المثل بمن ضرب فى الأرض طلبا للعلم بالشاعر الفارسى سعدى الشيرازى ، فلنضرب المثل بمن ذهب فى الأرض للعبادة على مذهب الصوفية بشاعر تركى من أهل القرن العاشر الهجرى يسمى خيالى بك . وهو كشعراء عصره عميق التأثر فى شعره التركى بالشعر الفارسى ، فهو شديد الميل إلى البديع ، كما أن جمهرة قصائد ديوانه فى مدح السلطان سليمان القانونى ،وله نزعة صوفية جلية(١) ولقد جلس مجلس المريد من شيخ من مشايخ الصوفية وهو صبى فى الأناضول ، وتلازما فى الحضر والسفر ، وكانا يسيحان معا وطالت بهما سياحتهما الصوفية حتى انتهت بهما الطريق إلى استانبول(٢) .

ومما رواه أبو أيوب عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : (من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج حتى يأتى المسجد فيركع ما بدا له ولم يؤذ أحداً ثم أنصت حتى يصلى ، كان كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى) وعلى ذكر الطيب نقول إن الرسول ﷺ كان له سكة يتطيب منها ، والسكة طيب معروف ، وكان ﷺ لا يرد الطيب ، ويقول طيب الرجال ماظهر ريحه وخفى لونه ، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه ، وللمرأة أن تتطيب بما شاءت إذا كانت عند زوجها ، أما مرورها على الرجال مع ظهور رائحة الطيب منها فمنهى عنه(٣) .

وهذا متصل بعدة حقائق ، ففيه صريح الدعوة إلى ضرورة التنظيف على أنه مظهر لحياة منطلقة ، ولا شك فى وجود صلة التأثير والتأثر بين مظهر الإنسان ومخبره ، فمن نزّه جسمه عن الشوائب نزّه تفكيره عنها بالتالى ، وللواقع المحسوس صداه فى الروح والفكر . وسطوع شذا العطر دافع عن النفس الفتور مغر بالإقبال على العمل . وقد أراد عليه الصلاة والسلام بأمته أن تكون أمة صاحية واعية .

وما أراد بالطيب أن يكون مجرد مظهر للتنعم الداعى إلى التراخى والتكاسل ، ولا سبباً للفتنة وما تفضى إليه ، بدليل أنه فرّق بين تعطر الرجل والمرأة ، وكره لها أن يكون عطرها مزيناً للرجال أن يتورطوا فيما حرم الله عليهم.

وعن أبى أيوب قوله عليه الصلاة والسلام (حبذا المتخللون من أمتى فى الوضوء والطعام . أما تخليل الوضوء فالمضمضة والاستنشاق وبين الأصابع . وأما تخليل الطعام

---

(1) Kocaturk : Turk Edebiyati Tarihi. SS 328, 329 (Istanbul 1964).

(2) Gibb : A History of Ottoman Poetry. p. 59 V3 (London 1904).

(٣) المناوى : جمع الوسائل فى شرح الشمائل ، ص٣ و ٤ ، ٥ جـ٢ (القاهرة ١٣١٧).

فمن الطعام ، وليس شئ أشد على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاماً وهو قائم يصلى).

كما ذكر رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يستاك من الليل مرارا.

وهنا نورد بيتين لشاعر تركى عاش إلى أوائل القرن الثامن عشر يسمى (ثابت) من قصيدة يمدح بها الصدر الأعظم فى شهر رمضان ، وهى خير مثال لمدائح ثابت المتصف بقدرته الفنية على عرض الحقائق فى صور حية ، مع شديد الولوع بالفكاهة وحلى البديع وزخرف اللفظ(١).

(وفى الميضأة تخلل أحد الخلعاء بعود من الحلوى ، وأدخله فى فمه على ما يهوى . أما المولع بالتدخين ، فإن النارجيلة حينما يفطر ، أحب إليه مما يوقد فى وقت الإمساك من مجامر العنبر)(٢).

فهذان البيتان يجمعان ما سبقت الإشارة إليه أو معظمه ، وهما يشيران إلى أن الترك يستنون بسنة الرسول ، ولا غرو فقد عرفوا بأنهم وقافون عند حدود الدين جاعلين من القرآن والسنة متين أساس لدولتهم وسياستهم ، وكان خلفهم على منهاج سلفهم إلى هذه الغاية.

وروى أبو أيوب قوله عليه الصلاة والسلام (من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه).

وهذا الحديث مشهور واسع الشهرة عند الشيعة خصوصاً، وقد ورد فى ثمانين رواية. والخبر فى ذلك أن النبى ﷺ كان فى غدير خم والحرّ جدّ شديد بحيث لو وضع اللحم على الرمضاء لشوى، وأمر باجتماع الناس فعملوا له من الأحجار وقيل من أقتاب الإبل منبرا ، وقام فيهم خطيبا ، فعدد نعم الرحمن على العباد ، ثم استجوبهم فاعترفوا له بالولاية . وقال : أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا بلى يا رسول الله . فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله . وجاء فى بعض الروايات قول عمر بن الخطاب : بخ بخ لك يا على ، أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة(٣).

وتمسك بخلافة على جميع بنى هاشم والزبير والمقداد وأبو ذر وسلمان الفارسى وأبو

---

(1) Rypka : Islamica. S 439 III (Liepzig 1927).

(٢) برى رندك متوضاده قمش حلواسن   شاخ مسواكه بدل ايلدى ادخال دهان
وقت امساكده مجمره عنبردن   خوشدر آلفته يه افطارده برلوله دخان

(٣) السيد هاشم معروف : عقيدة الشيعة الإمامية : ص١٨ و ٣٣ و ٣٤ (بيروت ١٩٥٦).

أيوب الأنصارى وشاعر النبى حسان بن ثابت وهو يقول :

يناديهم يوم الغدير نبيهم ... بخم وأسمع بالنبى مناديا
وقال فمن مولاكم ووليكم ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا ... ومالك منا فى الولاية عاصيا
فقال له قم يا على فإننى ... رضيتك من بعدى إماما وهاديا

وروى عن الرسول ﷺ فى النهى عن الطعن على من يتكلم بالفارسية (لا تعيره بالفارسية ، فلو أن الدين معلق بالثريا لناله أبناء فارس).

ونحن وإن كنا لا نعرف من وجه النبى إليه الخطاب على وجه التحقيق ، لموقنون أنه كف التعيير والثلب عن الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضى الله عنه ، بدليل قول المفسرين فى تفسير قوله جل وعلا فى سورة المائدة ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخشون لومة لائم**﴾ إن النبى ضرب على عاتق سلمان وقال : «هذا وذووه . لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لنا له رجال من أبناء فارس».

هذا ما يقوله النسفى فى تفسيره ، وقد أورده ابن خلدون فى مقدمته على نحو آخر وهو يقول إن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم العجم ، ومصداق ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس)(١).

وكان لسلمان الفارسى عند النبى منزلة عالية ، وحسبنا فى الإشارة إليها أن نذكر قوله ﷺ (سلمان منا أهل البيت) فسلمان من الفرس ، غير أن النبى ﷺ قال عنه ذلك بالمتابعة تعليما(٢).

وما ورد فى ذلك الحديث عن فارسية سلمان تأييد لما روى عن المبرد من قوله إن سلمان كان يرتضخ لكنة أعجمية فارسية ، أى أنه كان ينزع فى لفظه إلى الفرس ولا يستمر كلامه على العربية استمراراً(٣).

وهذا خبر يتعلق بما نحن بصدد الكلام فيه نسوقه لما يدرك من دلالته ، فلما قدم سلمان رضى الله عنه على النبى ﷺ أول ما قدم ، قام بالترجمة بينهما يهودى يعرف العربية والفارسية جميعاً ، وقد حرّف المترجم كلام سلمان حين مدح النبى ، وقال إنه ذمه .

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص٤٨١ (القاهرة ١٩٣٠).
(٢) ابن عطاء السكندرى : تاج العروس ، ص٤ (القاهرة ١٣٥٣).
(٣) أبو حيان التوحيدى : البصائر والذخائر ، ص١٩٢ (القاهرة ١٩٥٣).

وهبط جبريل عليه السلام فأصلح ما أفسد اليهودى من كلام سلمان ، وعلم النبى الفارسية وسلمان العربية . وما رأى ذلك اليهودى حتى نطق بالشهادة(١).

وتتمة القول فى هذا ما رواه بعضهم قائلا إن النبى ﷺ تكلم بالفارسية ، وحقيقة الأمر أنها عدة ألفاظ تسربت إلى العربية عن الفارسية ولا تنهض دليلا على أنه عليه الصلاة والسلام كان يتكلم بالفارسية بذلك المعنى الذى يدرك من التكلم بها .

وذكر أبو أيوب قوله ﷺ (لا يحل الكذب إلا فى ثلاثة ، الرجل يكذب امرأته يرضيها ، والرجل يمشى بين الرجلين يصلح بينهما والحرب خدعة).

ونحن نحمل هذا الكذب على غير ظاهره ، ونفهم أنه سمى الكذب تجوّزا لأنه مخالف للواقع من الأمر ، أو كما يقال كذب فى القتال إذا لم يوف حقه . وما دامت المضرة لا تلحق من يلقى إليه الخبر المكذوب ، فقد انتفى الشر عن هذا الخبر وفقد عنصره المقوم له الذى يجعل منه رذيلة تستشنع وتستبشع. فلا جناح على من يطيب خاطر المرأة مداراة وملاطفة حتى تقر عينها وتطمئن نفسها. أما إصلاح ذات البين وتأليف ما تنافر من النفوس، بمقال أو فعال لا يطابق واقع الحال تمام المطابقة ، فيورد على الخاطر القصة الأولى من الباب الأول فى كتاب «كلستان» وهو كتاب فى القصص التهذيبى ألفه سعدى عام ٦٥٦ هجرية ، ففى القصة الأولى أنه اتفق لأحد الملوك أن أمر بقتل أسير ، وما أيقن الأسير بالهلكة حتى سب الملك وثلبه وهو حال يأسه. ولما سأل الملك عن معنى كلامه قال وزير فى مجلسه إنه يقول (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) فتجاوز الملك عنه وحقن دمه . وكان فى المجلس وزير آخر يكشح بالعداوة للوزير الأول ، فرأى أن يشفى غيظه من عدوه بقوله للملك إنه لا ينبغى فى حضرة الملوك أن يقال إلا الحق ، فهذا الأسير بسط لسانه بالفحش والهجر . وأدرك الملك حقيقة الأمر ففضل كذب الوزير الأول على صدق الوزير الثانى ، لأن هذا سعى فى الخير وذاك أراد الشر . وتمثل بقول الحكماء إن كذباً يتحصل به الخير والصالح ، أفضل من صدق يثير الفتنة(٢). ولعل سعدى الشيرازى متأثر فى هذا المغزى الذى ضمنه قصته التى قد تكون من وحى خياله ، بهذا الحديث النبوى الشريف. أما الكذب فى الحرب الذى يتخذ صورة الخدعة ، فليس ينبغى أن يعد كذباً بالمعنى المطلق ، ولن يعد شراً كالكذب إلا إذا توهمنا أن قتل العدو فى الحرب شر ، ومخاتلة العدو من الشروط التى تقتضيها أصول القتال .

---

(١) جامى : شواهد النبوة ، ص٦٧ (بمبى ١٣٠٣).

(٢) سعدى : كلستان ، ص١٧ (تهران ١٣١٠ شمسى).

وكان ملوك الفرس القدماء فى حروبهم يدركون أن الحرب خدعة ، ولذلك كانوا يهتمون باختيار موضع المعركة ، فيقال عن ملك من ملوكهم إنه اختاره بين جبلين ، وأمر رجاله بعدم الإقدام على القتال، وانتظر حتى حمل عليه أعداؤه فحصرهم بين الجبلين(١) .

وللفردوسى شاعر الفرس فى القرن الرابع الهجرى بيتان من منظومته المعروفة بالشاهنامه ، يبين فيها كيف أن التمكن من العدو مرة يورده موارد الهزيمة :

(وأمام الجيش حفروا حفيرا ، وفى الفجر جعلوا فيه ماء نميرا . وبالحفير قطعوا على الملك الطريق ، فإذا بالجيش لا يطيق الحرب والملك لا يطيق)(٢) .

وعن أبى أيوب أن النبىﷺ قال (ما من رجل يغرس غرسا إلا كتب الله من الأجر قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس) . ومن الصريح فى نص هذا الحديث أن الإسلام يدعو الإنسان إلى العمل الذى يعود بالخير والنفع عليه وعلى أخيه ، والله يحسن المثوبة للعاملين الذين يلقون اليوم الحبة فى ظلمة الأرض ، لتصبح غداً ثمراء فى السماء ، وإن لم يأكل منها الإنسان فى حياته ، فليأكل غيره بعد مماته وهذا هو التعاون الإنسانى الحق الذى يسمو به معنى الإنسانية ، وهو تعاون على الخير بالمفهوم العام. ويؤيده حديث آخر جاء فيه قولهﷺ (الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه) .

وإن هذه الأخوة الإنسانية لتتخذ مظهر خالص المودة فى حديث آخر يرويه أبو أيوب وهو (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان بعدها ، فيصد هذا ويصد هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام) . وهذا ما لا غاية بعده فى تحسين الصلح والوئام وتهجين الحقد والخصام ، وأخذ الجماعة به توطيد لوحدتها واجتماع كلمتها على الوجه الذى يكفل لها رغيد العيش وصلاح الحال .

وكافينا ذلك القدر الذى رأينا أحقيته باختيارنا من الأحاديث التى رواها أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، كما رأينا جدراته بتقليب نظرنا فيه وعقد الصلات بين ما تضمنه وبين حقائق ومعان أخرى توضحه ويوضحها ، وتثبته فى أفهامنا ويثبتها . ولقد انتهينا من ذلك كله إلى تصور أبى أيوب محدثاً نابه الذكر مأثور المحامد.

* * *

---

(١) پرويز خانلرى : سپاه وجنك ، فردوسى نامه ، ص١٧٦ و ١٧٨ (تهران).

(٢) به پيش سپه كنده اي ساختند بشبگير أب اندر آميختند
بكنده ببستند برشاه راه فروماند ازجنك شه وسياه

الفصل الرابع : المجاهد

فى مستهل هذا الفصل ، نرى من الخير أن نورد ما تعلق بالجهاد من آى الذكر الحكيم ، ونحن واجدون من ذلك الكثير مما يقيم الدليل على أن الجهاد من صميم الدين الحنيف ، ويتضمن القرآن تصريحاً وتلميحاً إلى ما لا يحتمل شكا أى شك فى أن المؤمنين مأمورون شرعاً به مدعوون حتما إليه بدافع هو دافعهم إلى المحافظة على كيانهم وكف بأس أعدائهم عن دينهم ، قال عزّ من قائل فى سورة البقرة :

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ .

وقال تعالى فى سورة التوبة :

﴿انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾ .

وجاء فى السورة نفسها قوله عز وجل :

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم﴾ .

وجاء فى سورة النساء قوله تعالى :

﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدون درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما﴾ .

وفى سورة الصف قال أصدق القائلين :

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾ .

وبالنظر فى هذه الآيات البينات يتبين من منطوقها أن الله جل جلاله رغب المؤمنين فى الجهاد وزينه لهم ، وبصّر من صرفهم ظاهره عن تأمل باطنه بأنه خير لهم ، وهو يدعو إلى الجهاد بأعز ما يملك الإنسان وهما نفسه وماله . كما ذكرهم بأنه يبلغ بهم الجنة ، وبشرهم بعاقبته على أنها الفوز العظيم ، ثم يبين كيف أن المجاهد أحب إلى الله وأكرم

عنده من القاعد ، وله الأجر وحسن الجزاء .

ولا يخفى ما تتضمنه الموازنة بين القاعدين والمجاهدين من زجر للقاعدين وزراية عليهم.

والقرآن يحسن تمثيل المعنويات بالمحسوسات وهو يشبه الثواب والنجاة من العذاب بالتجارة ، وجعل هذا الثواب على الجهاد فى سبيل الله بعد الإيمان برب العالمين وسيد المرسلين.

وهذا الفضل للجهاد وجعله رتبة بين الإيمان بالله ورسوله ، يفضى بنا إلى ذكر بعض الأحاديث التى وردت فى الجهاد . وأولها ما يروى عن أبى هريرة رضى الله عنه من قوله: سئل رسول الله أى العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله . قيل . ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . قيل ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور .

فالجهاد فى الفضل قبل الحج وهو ركن من أركان الإسلام الخمسة .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله أى العمل أفضل ؟

قال : الإيمان بالله والجهاد فى سبيله .

وهذا يجرى مجرى الحديث الآنف ذكره وإن لم يذكر الإيمان برسوله على أن الإيمان بالرسول يفهم ضمناً فكل مؤمن بالله من المسلمين مؤمن برسوله.

قال صلوات الله وسلامه عليه (بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصوم والحج لمن استطاع إليه سبيلا) .

ولم يذكر الجهاد ركنا من أركان الإسلام فى هذا الحديث الشريف ، غير أن الكتب التى تجمع الأحاديث النبوية الشريفة ، ذكرت عظيم فضل الجهاد ، بحيث يعد الركن السادس بعد تلك الأركان[1] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قوله : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أى الناس أفضل ؟ قال: مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله . قال : ثم من ؟ قال : ثم مؤمن فى شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره[2] .

فقطعى الثبوت أنه ﷺ يؤثر المجاهد على العابد المتبتل الذى يحسب أن انقطاعه للعبادة وكفه الشر عن الناس مما يرفعه على المؤمنين درجات .

---

(١) محمد إسماعيل إبراهيم : الجهاد فى الإسلام ص٣ و ٤ (القاهرة ١٩٦٤).

(٢) النووى : رياض الصالحين ، ص٤٥٩ و ٤٦٠ (القاهرة ١٩٣٩).

ولم يؤمر ﷺ بالجهاد إلا بعد أن تمادى المشركون فى إنزال الأذى به وبأصحابه ، ومثال ذلك أن قريشاً ألقوا عليه القذر وهو يصلى ، فمضى إلى أبى طالب وقال (يا عم كيف حسبى فيكم ؟) فرد عليه سائلا (وما ذاك يا ابن أخ ؟).

ولما أطلعه النبى ﷺ على جلية الأمر تغضب وتسخط ، وطلب إلى حمزة أن يحمل سيفه، وانطلقا إلى حيث يجتمع القرشيون .

ثم أمر حمزة أن يلوث شواربهم بما ألقوا على النبى من قذر ، ويقتل كل من قاومه منهم . وكان ما أراد وما تحرك أحد من مجلسه .

فالتفت أبو طالب إلى النبى قائلا (هذا حسبك منا وفينا).

وفى هذا ما فيه من وضوح البرهان على أن دين المسلمين فى تلك الآونة كان فى مسيس الحاجة إلى سيف يحميه .

وعقب المؤلف الشيعى القديم مجلسى على قوله تعالى ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا**﴾ بأنهم ظلموا هم وأصحاب رسول الله ﷺ وآله ، وكان المشركون يؤذونهم ويأتونهم بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم :

اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال . فأنزلت هذه الآية ، وهى أول آية نزلت فى القتال بعدما نهى عنه فى نيف وسبعين آية(١) .

ولقد أشكل فهم الجهاد على بعضهم ، فتوهموا أن المسلمين حاربوا الكفار حتى يعتنقوا الإسلام . وسبب ذلك أن هؤلاء قرأوا نص القرآن دون أن ينظروا فى تفسيره . ونزلت آيات الجهاد حين هدد الكفار كيان المسلمين ورفضوا الصلح والسلام(٢) .

ومرّ بنا كيف شهد أبو أيوب المشاهد كلها مع النبى عليه الصلاة والسلام ، وجهاده فى بدر يجعل له من علو القدر ماله . فمعلوم أن المجاهدين فى بدر لهم من سمو المنزلة عند الله فوق ما للغزاة والشهداء جميعاً إلى يوم الدين وهم المعروفون بالأبرار.

وأشار النبىﷺ فى خطابه إليهم قائلا : فقد وجبت لكم الجنة .

أما فى غزوة خيبر ، فكان أبو أيوب يتولى حراسة خيمة الرسول ﷺ الليالى بطولها، ويقال إنه ﷺ دعا الله له بالخير طالباً إليه أن يحفظه من كل سوء كفاء ما سهر الليالى ذوات العدد فى حراسته والمحافظة عليه .

ورأينا كيف كان أبو أيوب من أنصار على بن أبى طالب كرم الله وجهه وأشياعه ،

---

(١) محمود شهابى : انوار فقه ، ص٥٦٦ و ١٦٩ (تهران ١٣٢٩).

(٢) حسين جاجا دينتكرات : اسلام صراط مستقيم ، ص١٥٨ (تبريز ١٩٥٨).

فخرج معه لنصرته فى مجاهدته للحرورية من الخوارج ، وهم الذين أجمعوا على إكفار على بن أبى طالب أن حكّم ، وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا .

وقال المقريزى إنهم الغلاة فى حب أبى بكر وعمر وبغض على ، ولا أجهل منهم ، فإنهم القاسطون المارقون[1].

وهنا موضع ذكر حديث لأبى أيوب . قال بعضهم إن أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه قدم علينا العراق فقلنا له أكرمك الله عز وجل بصحبة نبيه ﷺ ونزوله عليك ، فمالى أراك تستقبل الناس تقاتلهم ، تستقبل هؤلاء مرة وهؤلاء مرة . فقال إن رسول الله ﷺ عهد إلينا أن نقاتل مع علىّ الناكثين فقد قاتلناهم ، وعهد إلينا أن نقاتل مع القاسطين فهذا وجهنا إليهم .

ومفهوم كلام أبى أيوب ، أنه عليه الصلاة والسلام أمر بمجاهدة الظالمين وناكثى العهد، والحرورية الذين مرقوا من الدين كما قال المقريزى بصريح العبارة ، وذلك ما يوفر الأسباب لقتالهم .

وفى معرض الحديث عنه يقول السيوطى إنه شهد فتح مصر وغزا بحرها[2] وهذا ما يستدل منه على أنه ركب البحر ليجاهد الروم فى بلادهم وراءه ، بعد أن جاهدهم فى أرض مصر وصابرهم ، فما كفاه أن يكون بين المسلمين الذين حققوا النصر المبين على الروم فى بلد كمصر ، بل نازعته نفسه إلى غزوهم فى القسطنطينية مدينتهم البعيدة المنيعة ، ليحسن الله له مثوبة المجاهد الذى تطيب نفسه بالجهاد فى كل حين وفى كل أرض .

وقبل الإشارة إلى خروجة مجاهداً فى مصر وقبرص والقسطنطينية ، لندرك الباعث على غزو المسلمين لها ، نجيل الفكر فيما يعرف بدار الإسلام ودار الحرب.

فدار الإسلام هى الدولة التى يسود فيها السلطان للمسلمين ، وذلك مستوجب منهم أن يذودوا عنها ، وعليه فجهادهم دونها فرض كفاية إذا لم يغزها العدو. أما إن تقدم لغزوها ، فهذا الجهاد عليهم فرض عين .

وتختلف دار الحرب عن دار الإسلام بخلوها من سيادة لحاكم مسلم ولا عهد بينها وبين المسلمين ، وما دامت خارجه عن سلطان المسلمين من غير عهد ، فهى دار حرب ، وللمسلمين أن يتوقعوا الاعتداء منها عليهم .

ولقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا على حذر دائم من خطر داهم يتهددهم ، ويهيئوا

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ص١٥٦ جـ١ (القاهرة ١٩٥٠).
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ص١١٢ جـ١ (القاهرة ١٣٢١).

الأمر لقتال المعتدين[١] .

ومما يصح فى الفهم ، أن تجس الدولة البيزنطية من دولة العرب فى علو شأنها واطراد تقدمها واتساع رقعتها ، فتتربص الدوائر بها وتعقد العزم على الوقوف بالمرصاد لها ، لتفل شوكتها وتذهب ريحها . وذلك ما يلزم منه أن تكون دولة الروم دار حرب بكل ما يجرى عليها من صفات ، وللمسلمين أن يتوقعوا منها العدوان عليهم ، ويعدوا لرد هذا العدوان ما استطاعوا من قوة .

وحقيق بالذكر أن الصراع بين العرب والروم كان سجالا كما دام طويلا ، ووجد العرب مس الحاجة إليه ليحفظوا على دولتهم كيانها ، وما شعر الروم ببلوغ قوتهم أوجها ، حتى تمنوا أن يقاتلوا العرب رجاء أن يقتطعوا من أرضهم ما يضيفونه إلى رقعة ملكهم[٢] .

وإن تذكرنا لما كانت عليه الحال فى الحدود الفاصلة بين العرب والبيزنطيين ليوضح لنا الأمر توضيحاً يقطع الشك باليقين . فقد وجدت حاميات للطرفين على التخوم بينهما ، وكان على ساكنى المناطق التى تتصل فيها حدود هؤلاء وهؤلاء أن يعدوا عدتهم لقتال متصل لا ينقطع وأولئك المقتتلون من الفئتين يزحفون نحو العدو تارة ، ويردونه تارة أخرى وهم مداومون على ذلك دواليك[٣] .

وليس من ريب فى أن كل هذه الحقائق مسقطة لحجة من قال إن الجهاد ليس من أركان الإسلام ، وزعم أنه تكليف عرضى مالت القوى الدنيوية إلى الأخذ به ، وتوهم أن الجهاد هو حروب النبى ﷺ وحسب ، وأن خلفاءه ما أرادوا إلا نشر الإسلام خارج بلاد العرب ، وادعى أن المسلمين جميعاً به غير ملزمين ، وما الغرض منه سوى فرض الإسلام على الكافرين[٤] .

ولقد انتشب القتال فى خلافة عمر بن الخطاب بين هرقل وقيصر وبين أمراء المسلمين الذين فتحوا الشام[٥] وفى عام ٣٨ للهجرة ، وقعت غزوة السوارى بين الروم تحت إمرة قيصرهم قسطنطين وكان المسلمون تحت إمرة ابن أبى سرح وذلك فى البحر على مقربة من الاسكندرية . وسميت الغزوة بهذا الاسم لكثرة سوارى السفن التجارية ، حتى قيل إنها تألفت من ألف سفينة منها مائتان للمسلمين ، وكان النصر فيها حليفاً للعرب ، ومما يذكر أن

(١) محمد أبو زهرة : العلاقات الدولية فى الإسلام ص٥٣ (القاهرة ١٩٦٤).
(٢) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ، ص١٢٠ (القاهرة ١٩٦٣).
(3) Wittek : The Rise of the Ottoman Empire. p. 17 (London 1938).
(4) Mantran : L'Expansion Musulmane. p. 29 (Paris 1969).
(٥) المسعودى : مروج الذهب ، ص٢٠٣ جـ١ (القاهرة ١٣٤٦).

العرب غنموا من سفن الروم ما هيأ لهم أن يكونوا لهم أسطولا حاربوا به الروم من بعد فى أيام الأمويين[١] .

وقبل ذلك فى العام الثامن والعشرين للهجرة تجهز ابن قيس لغزو قبرص بجنود من العرب والمصريين لفتح الجزيرة . وغلب العرب عليها دون عظيم مشقة وأسروا من أهلها خلقاً كثيراً . وما زال فى تلك الجزيرة مزار لزوجة أمير من أمراء الجيش العربى ، وكانت تصحب زوجها فى الحملة وماتت على أثر سقوطها عن صهوة بغل ركبته[٢] .

ولقد مرّ بنا أن أبا أيوب الأنصارى كان بين غزاة جزيرة قبرص الذين جاهدوا الروم فيها ، وكان خروجه إليها بعد أن دخل مصر فاتحاً .

فقد جهز العرب سفناً تحمل جيشاً قوامه جند من المصريين والعرب لغزو قبرص على الجهاد ، فغلبوا عليها بلا عظيم مشقة ، وعادت سفنهم إلى الاسكندرية مفعمة بالغنائم والأسرى . وحشد الروم خمسمائة من سفائنهم أبحروا بها إلى الاسكندرية ، وكان العرب دونهم فى كثرة عددهم ، ثم دارت رحى القتال ونصر الله العرب فدفعوا سفائن الروم عن الاسكندرية[٣] .

أما القسطنطينية ، فقد وردها فاتحا مرتين . ففى العام الثالث والأربعين للهجرة ، مضى إليها جيش المسلمين بقيادة بسر بن أرطاة وسفيان بن عوف ، وكان أبو أيوب بين المحاربين . غير أن المجاعة أجهدت المحاربين كثيراً وحالت بينهم وبين المضى قدما ، ولما ساءت حالهم رجعوا القهقرى صوب الشام . ولم يقم أبو أيوب فى الشام بل مضى إلى البصرة حيث أكرم ابن عباس مثواه فى خبر أسلفنا الإشارة إليه فى الفصل الأول.

وفى العام التاسع والأربعين للهجرة غزا المسلمون القسطنطينية بجيش معقود اللواء لسفيان بن عوف، ثم عززوه بجيش آخر يقوده يزيد بن معاوية ، ويقول الطبرى إن يزيد كان معه ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى[٤] .

ولقى الغزاة من هذه الغزوة نصبا ، وتأذوا بشدة للبرد لم يكن لهم بها عهد من قبل.

وفى تلك الغزوة كانت وفاة أبى أيوب وسفيان بن عوف .

قيل إن العرب قبل محاولتهم غزو القسطنطينية ، دمروا الكثير من سفن قسطنطين الثانى ، غير أنهم طلبوا فتح مدينة القياصرة ولم يظفروا وذهبت جهدهم أدراج الرياح .

---

(١) د. حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ، ص٢٨ (القاهرة ١٩٣٢).

(2) Muir : The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, p. 205 (London 1924).

(3) Cash : The Expansion of Islam. p. 65 (London 1928).

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ص١٧٣ جـ٤ (القاهرة ١٩٣٩).

وما ذاك إلا لأن الروم اهتدوا إلى ما رجّح كفتهم على كفة المسلمين ، وهو ما يعرف بالنار الإغريقية ، فتأتى لهم بها أن يحرقوا سفن المغيرين من بعيد . ويمكن القول إن النار الإغريقية قد أطالت بقاء الدولة البيزنطية(١).

ويقول الرحالة التركى أوليا چلبى الذى عاش فى القرن السابع عشر ، إن أبا أيوب الأنصارى ومسلمة قادا جيشا فى خلافة معاوية مرتين إلى القسطنطينية . وفى المرة الأولى أبرما الصلح مع الملك قسطنطين وبعد أن نالا منه الخزائن عادا إلى الشام . أما فى المرة الثانية فكان أبو أيوب أميرا على الجيش كالشأن فى المرة الأولى ، وضرب الحصار على المدينة وفتح (غلطة) وبينما كان يفتح القسطنطينية عقد الصلح . وبينا هو خارج من أياصوفيا بعد أن تعبد فيها ، إذ بالكفار يرجمونه حتى يستشهد ، وفى رواية أنه مات من مرض أسهل بطنه(٢).

وهذا من كلام أوليا چلبى لا يثبت على النقد ، ولا وجود له فيما استطعنا إليه سبيلا من المراجع . ونحن لا نعرف عن أبى أيوب أنه كان من قادة جيوش المسلمين ، ولا نرى أى وجه لدخوله كنيسة أياصوفيا للتعبد فيها . فذلك القدر من كلام الرحالة التركى باطل لا يعول عليه .

ولنفسح المجال لغيرنا فى ذكره لحجية رواياته وإمكان الأخذ بها .

فرحلة أوليا چلبى عند الترك لا يحمل كل ما ورد فيها على محمل الجد ، والمثقفون منهم على أنها تصلح لأن تكون مسلاة لنساء الحريم وهى فى ذلك تشبه كتاب ألف ليلة وليلة . وقد وصف المؤلف أحد المستشرقين فى عام ١٨٦٣ فقال إنه من أهل الغفلة ونفّاج كبير ، نعدم فى رواياته بصيصا من نور الحقيقة(٣) .

ولعل مثل هذا الرأى فى أوليا چلبى مؤيد لعدم أخذنا بروايته الأولى ،وإن كانت روايته الثانية صحيحة مطابقة لكل ما ورد من روايات فيما بين يدينا من كتب.

وجاء فى المناقب الخالدية(٤) ،أنه ناجز فى جهاده ونازل وطالت به تلك الحال التى ما كان لشيخوخته الفانية أن تحتمل مثلها ، فما وهت عزيمته وإنما ضعفت قوته وعجزت طاقته وناء تحت وطأة المرض . فقال له من حوله إنه شيخ عليل وله رخصة شرعية فى ترك

(1) Servier (T) Moss-Blundell : Islam and the Psychology of the Musulman. p. 110 (London 1924).

(٢) أوليا چلبى : اوليا چلبى سياحتنامه سى . ص٤٠٠ برنجى جلد (استانبول ١٣١٤).

(3) Bombaci : Storia della Letteratura turca. p.409 (Milano 1956).

(4) Ogut : Meshur Eyyub Sultan S 63 (Istanbul 1957).

الجهاد، غير أنه لم يلق إلى هذا القول سمعا ، وأبى إلا أن يكون مجاهداً ، وتحامل على نفسه فى زحف المسلمين إلى استانبول ، وما بلغ موضعا فيها يسمى كاغدخانه حتى تهالك إعياء على فراش خيمته ، ثم دخل فى النزع حتى انقضى أجله .

وقيل عنه وهو يجود بنفسه إنه استدعى من حوله من المجاهدين وطلب إليهم الصفح عنه . واتفق لأحد من جاء يعوده من مرضه أن دعا الله له بالشفاء فبسط إليه أبو أيوب رجاءه أن يدعو الله له بالمغفرة إن كانت ساعته قد دنت وأن يدعو له بالشفاء إن كان فى عمره صلة.

ويستشف من مثل هذا الرجاء أنه كان ينوط أمله بمواصلة الجلاد والجهاد فى سبيل الله ، وما تعلق بالحياة إلا لينصر الدين ، وذلك كل دنياه وغاية ما يتمناه.

ولما ثقلت عليه العلة دخل عليه يزيد بن معاوية يعوده فقال حاجتك قال نعم حاجتى إذا أنا مت فاركب بى ثم سغ بى فى أرض العدو ما وجدت مساغا . فإن لم تجد مساغا فادفني ثم ارجع.

فلما مات ركب به ثم سار به فى أرض العدو وما وجد مساغا ، ثم دفنه ورجع.

وفى رواية أخرى أنه قال ليزيد بن معاوية حين دخل عليه : أقرئ الناس منى السلام ولينطلقوا بى فليبعدوا ما استطاعوا . وحدث يزيد الناس بقوله ، فانطلقوا بجنازته ما استطاعوا(١) .

وفى خبر آخر أنه أوصى أصحابه قائلا : إذا أنا مت فاحملونى ، فإذا صاففتم العدو فادفنونى تحت أقدامكم ففعلوا ، وقبره قرب سور القسطنطينية معلوم معظم يستسقون به فيسقون(٢) .

وأبو أيوب بهذا من قوله يرسم فى الخيال أجمل صورة ويودع العقل أروع فكرة . فقد بلغ من شدة تعلقه بالجهاد أن يكون بين صفوفهم حتى وهو فى نعشه على أعناقهم ، وأراد لروحه أن تسعد عند ربها برؤية جسدها الذى فارقته محمولا يدفع به فى أرض العدو. وشاء أن يتوغل مبعداً فى تلك الأرض حياً وميتاً ، وكأنما لم يكفه ما حقق فى حياته فتمنى مزيد عليه بعد مماته . وهذا مالا غاية بعده فى مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق.

ولقد عمل يزيد بوصيته ، كما نفذ أصحابه ما طلب إليهم . ويقول صاحب العقد الفريد إن يزيد أمر بتكفينه وحمله على سريره ، وخرج المسلمون يقاتلون الروم وهم

(١) الواقدى : الطبقات الكبرى ، ص٤٩ جـ٣ (ليدن ١٣٢١).
(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ، ص٤٢٦ (القاهرة).

يحملون سريره . فأرسل قيصر إلى يزيد يسأله متعجباً عما يشاهد فرد عليه يزيد بقوله : صاحب نبينا ، وقد سألنا أن نقدمه فى بلادك ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله، فأرسل إليه قيصر قائلا : العجب كل العجب كيف يدهى الناس أباك وهو يرسلك فتعمد إلى صاحب نبيك فتدفنه فى بلادنا ، فإذا وليت أخرجناه إلى الكلاب . فقال يزيد : إنى والله ما أردت أن أودعه بلادكم حتى أودع كلامى آذانكم، لئن بلغنى أنه نبش من قبره أو مثل به ، ما تركت بأرض العرب نصرانياً إلا قتلته ولا كنيسة إلا هدمتها . فبعث إليه قيصر: أبوك كان أعلم بك . فوحق المسيح لأحفظه بيدى سنة . ثم قال ابن عبد ربه إن قيصر الروم بنى على قبره قبة يسرج فيها [١].

أما عام وفاته رضى الله عنه فاختلف فيه . ومن المؤرخين من قال إنه عام خمسين وقائل إنه عام واحد وخمسين للهجرة . ونجد هذا الاختلاف لدى ابن عبد الحكم ، والظن الأغلب أنه يفطن إلى أنه جعل وفاته سنة خمسين فى الصفحة الثالثة والتسعين ، وسنة إحدى وخمسين فى صفحة ثلثمائة وسبعين من كتابه فتوح مصر وأخبارها .

ونحن واجدون بين موت أبى أيوب الأنصارى وموت خالد بن الوليد ما يتيح لنا عقدا للموازنة ، فكلاهما كان من صحابة الرسول ﷺ والغزاة المجاهدين الذين قاتلوا الروم ، إلا أن خالداً حمل راية المسلمين فى حرب الروم ففتح الله على يديه ، كما تولى إمرة الجيش ، وما حمل أبو أيوب لواء ولا قاد جيشاً . وغلبت على خالد صفات ليث الكريهة وخواض الغمرات فعرف بسيف الله المسلول ، أما أبو أيوب فشهرته بأنه ضيف الرسول الكريم ومات مجاهداً فى أرض غريبة ، وبلغ من علو المنزلة عند الترك ، لم يبلغه صحابى ولا مجاهد سواه.

وكلاهما قاتل من أجل الشهادة ولم يمت فى حومة الوغى قتيلا . ولقد حزن خالد مرير الحزن على موته حتف أنفه ، وقال قولته المشهورة وعيناه تهملان (ما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم . ثم ها أنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء). .

ولما شاهدت أمه نعشه محمولا قالت تبكيه :

أنت خير من ألف ألف من القو ... م إذا ما كبت وجـوه الرجـال
أشجاع ، فأنت أشـجع من ليـ ... ـث غضنفر يـذود عن أشـبال
أجواد ، فأنـت أجـود من سيـ ... ـل غامـر يسـيل بين الجبـال

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ص١٢٨ و ١٢٩ جـ٣ (القاهرة ١٩٢٨).

قيل وكان مظفراً خطيباً فصيحاً يشبه عمر بن الخطاب فى خلقه وصفته[1] ولقد أدى أجل الخدمات للإسلام بسيفه ومهارته فى التدابير العسكرية[2].

ولخالد طبيعة جندية دفعته إلى أن يقول إن الجهاد شغله عن تعلم القرآن أو قراءة كثير من القرآن ، وذلك لأنه لم يقض مع النبى ﷺ غير أوقات قصار ، لأن السنوات الثلاث التى قضاها بعد إسلامه معه ، إنما كان فيها بين الغزوات والسرايا[3].

وكان اختلاف هذين الصحابيين فى ملامحهما الخلقية والنفسية ، اختلافاً بينهما إزاء موتهما على فراشهما . فخالد بن الوليد وهو من هو فى نجدته وشدة بأسه ومصاولته للموت فى سوح القتال ، يشعر فجأة بعجزه عن أن يملك لنفسه شيئاً أو يغير مصيره المحتوم تجاه هذا الموت . فيغلبه الأسى ويأخذه البكاء ، ودمعه دمع المحارب المنكسر . أما أبو أيوب وهو أرق حاشية وألين جانباً، فيواجه الموت فى إخبات وخضوع . وتدفعه نزعة غامرة إلى مواصلة القتال فى الخيال ، وضرب المثل فى رمزية رائعة للمؤمن وهو يجاهد بعد الموت .

وها هوذا شيخ الإسلام أسعد أفندى يشير إشارة لامحة إلى موته بقوله :

شهد المشاهد جاهداً ومجاهـداً	ومكابـــدا بحروبــه ما كابـدا
حتى أتى بصــلابــة ومهابـــة	فى آخر الغزوات هذا المشـهدا
قد مات مبطونـاً غريبـاً غازيــاً	فغدا شهيدا قبل أن يستشــهدا

فكأن كيفية موته هى التى جعلته شهيداً يختلف عن غيره من الشهداء وما أكثرهم ، ولكن الشاعر لم يلتفت إلى بقية خبر شهادته الذى سبق أن ألمعنا إليه ، وكذلك كان صنيع الأميرة عادله التى استغنت بالإشارة عن العبارة فى قولها :

(حينما قدم القسطنطينية لفتح الروم ، استشهد ذياك العظيم . وبتراب قدمه نالت تلك المدينة الشرف ، وأصبح لدرة ذاته القبر الصدف)[4].

وبعد أن عرفنا ما وسعنا أن نعرف عن ذاته، فمن حق العلم علينا أن ننظر نظرة إلى قبره.

* * *

(١) الزركلى : الأعلام ، ص٢٨٦ جـ١ (القاهرة ١٩٢٨).
(٢) معلم ناجى : اسامى ، ص١٣١ (استانبول ١٣٠٨).
(٣) العقاد : عبقرية خالد ، ص٢٥٦ (القاهرة ١٩٧١).
(٤) كلدى رومه چو فتح قسطنطين ايچون — هم شهــادت بولدى اول دولت نمون
خاك پايــى ويردى بوشــهره شــرف — درذاتنــه اولوب قبــرى صـــدف

الفصل الخامس : قـــــبره

فيما نعلم أن ابن قتيبة أول من ذكر قبر أبى أيوب فى كتابه المعارف ، فقال إنه دفن بأصل سور القسطنطينية ، وأمر يزيد بالخيل فمرت عليه مقبلة مدبرة حتى غبى أى غاب أثره[1]، وهذا من قوله يقيم الدليل على أن ذلك القبر كان فى أول أمره لحدا فى الأرض ولم يكن بناء فى ظاهرها . أما أمر يزيد بمرور الخيل عليه فيؤخذ منه أنه أراد إخفاء معالمه عن عيون الروم مخافة أن تحدثهم نفوسهم بنبشه . ونحن فى هذا الحسبان على ما ذكره صاحب العقد الفريد من حديث فى هذا الصدد بين يزيد وقيصر الروم .

كما أن بقية الحديث بينهما يؤكد أن القيصر تعهد بالمحافظة على القبر ، ثم بنى عليه قبة يسرج فيها إلى اليوم . وإذا عرفنا أن صاحب هذا الكتاب مات عام ٣٢٨ هجرية ، أدركنا أول ما أدركنا أنه ظل قائما وكان مزارا له فى نفوس الروم حرمته ، ولعلهم توارثوا توقيرهم للقبر وصاحبه عن ملكهم .

ونمضى مع الزمان لنجد فى كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ للهجرة قوله إن شيخا من أهل فلسطين رأى بنية بيضاء دون حائط القسطنطينية ، وسأل عنها فقيل له إن هذا قبر أبى أيوب الأنصارى صاحب النبى ﷺ، وأتى تلك البنية فرأى قبره وعليه قنديل معلق بسلسلة[2].

وما ورد فى هذين الكتابين يؤيد أن قبر ذلك الصحابى بقى على الدهر قرونا متطاولة كأثر إسلامى له فى عاصمة المسيحية قدسيته وشهرته. إلا أن أمرا يثير التساؤل عن طول تلك الحقبة من الدهر التى ظل فيها القبر أثراً باقيا ، وذلك أن التواريخ تقول إن من يدعى الشيخ آق شمس الدين كشفه حين حاصر السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وغلب عليها عام ٨٥٧ هجرية (١٤٥٣ ميلادية).

والكشف عنه يفيد أنه كان مندثراً ، والاندثار مع كل ما قيل من بلوغ الروم الغاية فى المحافظة عليه معبرين عن آيات إعزازهم وتوقيرهم . فالأخذ بهذا من شأن الروم مع قبر أبى أيوب لا يمنع حقيقة من أن تخطر ببالنا وهى اجتياز جيوش الصليبيين المعروفين باللاتين بالبلاد البيزنطية . وقد فتحوا القسطنطينية عام ١٢٠٤ ميلادية وطال احتلالهم لها إلى عام ١٢٦١ . وكانت هذه الأعوام أعوام شؤم وظلم جار فيها أهل المدينة بالشكوى من المعتدين. وطالما عبر القساوسة فى كنيسة أياصوفيا عما بلغت حال الروم من السوء بعد أن

(١) ابن قتيبة : المعارف ، ص١١٩ (القاهرة ١٩٣٢).

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، ص١٥٤ جـ١ (القاهرة ١٩٣١).

أنزل اللاتين بهم الأذى فى عقيدتهم الدينية(١).

فليس من المستبعد ولو عقلا أن يكون القبر الشريف قد تخرب فى ذلك العهد . وفى نظرنا أن مثل هذا الحسبان أقرب إلى الصواب من قول من عدوا كشفه أثناء حصار العثمانيين من قبيل الأساطير . فقد شبه مردتمان هذا الكشف بأسطورة وجود الرمح المقدس فى حصار أنطاكية على عهد الصليبيين دون أن يدعم ما يذهب إليه بدليل(٢).

وهنا نكتفى فى ذكر فتح القسطنطينية باللمحة الدالة فنقول إن حصار السلطان محمد طال ثلاثة وخمسين من الأيام ثم فتحها فتلقب بالفاتح ، وكان متسامحا إلى أبعد مدى ، فأمر بانتخاب البطريق وأرسل إليه جوادا مطهما يركبه إليه للقائه . ولما التقى به تحدث معه طويلا ودعا الله له بخير ، وأكد له أنه يستطيع أن يفيد من مودة له فى نفسه ، كما أن ما كان للبطارقة من أسلافه من حقوق تميزهم باقية على سابق عهدها وهو من يتلقاها عنهم . فدعا كل من كان فى صحبة البطريق من قساوسة للسلطان ، ثم انحنى البطريق على قدم السلطان يقبلها (٣).

ولعل هذا من صنيع السلطان محمد الفاتح كان على غير ما يتوقع الروم ، فمما يروى أن أهل القسطنطينية شيبا وشبابا اتخذوا لهم موئلا فى كنيسة أياصوفيا ، وفى عقيدتهم أن ملكا من الملائكة سوف يهبط عليهم من السماء ويقدم سيفا إلى رجل منهم يدفع به الترك عن مدينتهم ويطارد فلولهم إلى حدود فارس(٤).

ولعلهم علموا علم اليقين أن الفاتحين من المسلمين ليسوا بظالمين ولا متعصبين بل أكرم المتسامحين.

ويقول شاعر تركى معاصر من منظومة طويلة يحيى بها السلطان ويمجد بها عظائمه:

(حبذا فتحك المبارك من فتح أيها الهمام ، فقد فتحت لنا استانبول منذ خمسمائة عام. ولكل قلب منك اليوم ما يشبه يدا تمتد ، وعلى ضريحك من حشود الناس سيل متدفق مزبد . ومن حصارك ارتعدت فرائص ذى العزم الخائر وفى فتحك كان لك من الأولياء مناصر ، وما بشر به النبى أضحى البين الظاهر ، ولقد شرفت لأنك أصبحت لأبى أيوب المجاور)(٥).

---

(1) Mijatovch : The Conquest of Costantinople by the Turks, p. 18 (London 1892).

(2) Mordtmann : The Encyclopaedia of Islam. (1960).

(٣) أحمد راسم : عثمانلى تاريخى ، ص١٨٨ و ١٨٩ برنجى جلد (استانبول ١٣٣٠).

(4) Babinger : Mehamed der Eroberer und seine Zeit. S 101 (Munchen 1953).

(٥) فتحك نه مبارك نه معظم نه مكمل — استانبول آلدك بزه بش يوز سنة اول
هرقلبه بوگون سندن اوزا نمش كبى برال — أقمقده سنك تربه نه انسان دنيلن سل =

فكأن مجاورة الفاتح لقبر أبى أيوب كانت له أعظم مجد سرعان ما ذكره له مادحه بعد قرون خمسة ، وكان السابق إلى الفهم أن تراخى الزمن جدير بطمس هذه الذكرى.

ويسوق قدماء المؤرخين شرح كيفية كشف قبر أبى أيوب على النحو التالى . فيقولون إن من يدعى شيخ آق شمس الدين وهو من جلة العلماء والأتقياء صحب السلطان فى حملته ، وكان له من شفافية الروح ما يتيح له أن يعرف الغيب ، فعين للسلطان يوم الفتح وساعته وأسماء الحصون التى يغلب عليها . وما مر هذا من كلام الشيخ بسمع السلطان حتى أمر فى التو جيش المجاهدين بالزحف والشد على الروم فى البر والبحر ، غير أن الحصون التى ذكر الشيخ أنها ستسقط فى أيدى الأتراك وفى وقت معلوم ثبتت على الهجوم لاستبسال المدافعين عنها . ونمى الخبر إلى السلطان فأخذه الأسى ، ودخل الشيخ آق شمس الدين خيمته وحسر عمامته عن رأسه وسجد وهو يرسل الأنين وتفيض عينه من الدمع ، وما مضى على ذلك طويل وقت حتى رفع رأسه وقال : الحمد لله فتح الحصن . وكان الأمر كما قال ، وسر السلطان سرورا لا مزيد عليه ، والتفت إلى عظيم من أهل مشورته يدعى أحمد باشا قائلا : حمدا لله ، لقد وقع الأمر على ما ذكر الشيخ ، أتعلم أن مجالستى له آثر عندى وأحب إلى نفسى من فتح استانبول؟

ودخل السلطان عليه ذات يوم وهو يقول إن فتح استانبول إنما تم بفضل من همته والحمد لله ، ورغب إليه أن يجعله من مريديه . فرد عليه الشيخ بقوله : أن يكون مريدا له يصرف قلبه وفكره عن الدنيا وما فيها فيختل نظامها ويفسد أمرها ، وقدم السلطان إليه مالا فعفت نفسه عن قبوله .

واتفق للسلطان ذات ليلة أن دعاه إلى مجالسته وأخذا بأطراف الأحاديث بينهما حتى مطلع الفجر . وبعد الصلاة قال له إنه قرأ فى الكتب أن قبر مضيف الرسول أبى أيوب الأنصارى فى استانبول ، وطلب إليه أن يدله على موضعه ، فقال (يا مولاى إنى آنس نورا يهبط على بقعة من الأرض وأحسب أن هذه البقعة موضع قبره).

وبعد مدة من الزمن قال للسلطان (نعم لقد التقيت بروح أبى أيوب الشريفة ، فزفت إلى التهنئة بفتح استانبول ، وأظهرت السرور بإخراجها من الظلمات إلى النور).

وانطلق السلطان والشيخ إلى موضع القبر ، وطلب السلطان تعيينه ليقيم عليه بناء . وقال آق شمس الدين لو حفروا هنا لظهرت لوحة من رخام كتب فيها بالعبرية أن هذا قبر

= قور قمشدى حصارندن ازاقلرده كى كافر — أولمشـــدى وليلرسكـــا فتحكـــده مظاهـــر
پيغـمبرك آنلاتـغى فتـــح اولـــدى ظاهـــر — اولدك نـه شـــرف حضـــرت ايوبه مجـــاور

المضيف أبى أيوب الأنصارى.

وعرت السلطان هزة عجب وطرب فلم يكد يتماسك فى وقفته ، وأمر فأقيم لمضيف الرسول ضريح ، كما أقيمت لسكنى الشيخ آق شمس الدين حجرات ، وبنى فى تلك البقعة مسجد(١).

وعظمت منزلة الشيخ فى نفس السلطان ، وزادت محبته له إلى المدى الأبعد ، وشاء أن ينخرط فى سلك مريديه ، إلا أن الشيخ أبى ذلك على السلاطين ، كما أقام المسجد وشيد الزوايا ، وما قبل الشيخ الإقامة فيها(٢).

وكأنما كان حب الشيخ أن يكشف القبر ، فأظهر الكراهة لكل آية أخرى من آيات تعظيمه وتكريمه.

كان كشف القبر فى عداد كرامات آق شمس الدين التى تناقلتها ألسنة المديح على الأيام ، وأصبح عند الترك خصوصاً مكرمة له باقية . كما اقترن مجد الفاتح بمأثرة الشيخ وجلال ذكرى الصحابى رضى الله عنه . ولعل الفضل الأعظم منسوب إلى من بشر بالفتح فشحذ العزائم ، وكشف القبر الشريف فعمر قلوب الترك وبلادهم بهذا النور المنبعث من صفاء الروح وروعة الإيمان.

وهذا شاعر تركى يحوم على جانب من ذلك المعنى بقوله :

(رفيق الفاتح فى الأيام السود آق شمس الدين ، وفى جبينه أشرق نور الفتح المبين . بعين الحقيقة النصر أبصر ، وهو به من بشر ، وهكذا يرى البعيد أرباب اليقين)(٣).

وآق فى التركية بمعنى أبيض، والشاعر يجعل من هذا المعنى أصلا تنشعب عنه معان أخر.

ونعود إلى خبر كشف القبر لنطلع عليه فى رحلة أوليا چلبى الذى يختلف عن طاشكپرى زاده فى قوله إن الكتابة على لوحته الرخامية كانت بالخط الكوفى، ويضيف إلى ما قيل أن كلا من سلاطين آل عثمان كان يتبرك بإقامة الأبنية حول قبره، فأصبح ما حوله أشبه شئ بالجنة. ثم تصدى لوصف ضريحه فقال إن عليه قبة، وله نوافذ على فناء المسجد، وجدرانه مزدانة بنفيس القيشانى ، وتحيط به قضبان وشمعدانات من الفضة

---

(١) طا شكبرى زاده : الشقائق النعمانية ، على هامش وفيات الأعيان لابن خلكان ص٣٤٦ جـ١ (القاهرة ١٢٩٩).

(٢) شمس الدين سامى : قاموس الأعلام ، ص٢٦٦ برنجى جلد (استانبول ١٣٠٦).

(٣) قره كون دوستى ايمش فاتحك آق شمس الدين — كه يوزنده لمعان ايتدى آنك فتح مبين
نصرتى چشم حقيقتك كوروب ويردى خبر — بويله هر كارى اوزاقدن كورور ارباب يقين

الخالصة[١]. ولا نبسط القول فى كشف القبر ووصفه إلى أبعد من هذا ، لأن المؤرخين لا يتباينون فى رواياتهم تباينا كبيرا ، ويتفقون فى اختيار أعظم ما يعبرون به عن التعظيم والتكريم .

بيد أننا ننظر نظرة فى قول طاشكبرى زاده إن لوحة القبر كتب عليها بخط عبرى لنقول إن هذا باطل فاسد فى العقل ، ويصوبه قول أوليا چلبى إنه خط كوفى ، والخط الكوفى فى القديم مشبه للخط العبرى ولعل هذا سبب التباس الأمر على من توهم أن الخط كان عبريا .

وكان للترك ميل منذ قديم إلى أن يدفنوا قريباً من قبره تبركا به ، ورغبة منهم فى أن يكونوا إلى جوار هذا الصحابى الجليل ، ربما شفع لهم أو نفعهم عند الله أنهم كانوا فى رحاب عظيم من صحابة رسول الله ﷺ.

وما كانت بركاته لتغمر الأموات دون الأحياء ، فمن الأحياء من شرفوا بقربهم منه وتباهوا منتسبين إليه .

فهذا شاعر يتلقب فى شعره بأيوبى ، وقد عاش فى عصر السلطان سليمان القانونى أى أنه من أهل القرن العاشر الهجرى ، وله منظومة تتألف من نحو ألف وخمسمائة بيت فى مناقب السلطان سليمان ، وقد مدحه فيها ووصف حروبه وفى المنظومة فصل عنوانه (فى مناقب أبى أيوب الأنصارى)[٢].

والشاعر يذكر السبب فى اختياره ما يعرف عند شعراء الترك بالمخلص أو اللقب الشعرى ، وذلك فى أبيات عدة منها قوله :

(ولما كان لى بالقرب منه المقام ، وطالت علىّ الأيام والأعوام . بمخلص الأيوبى تلقبت ، وعلى ديار الشعر وفدت)[٣].

ولو ذهبنا نتلمس ما عبر به الترك عن تقديسهم لضريحه وفرط اعتزازهم به ، على أن ذلك من آيات الإيمان ، لوجدنا كثيراً تمس الحاجة فيه إلى طويل شرح وفضل تأويل ، وتحصل لدينا أدب إسلامى رفيع فى التركية أولى بالمسلمين فى المشارق والمغارب أن يطلعوا عليه ويتعرفوا إليه .

---

(١) اوليا چلبى : اولياچلبى سياحتنامه سى : ص٤٠١ برنجى جلد (استانبول ١٣١٤).

(2) Anhegger : Eyyubi'nin Manakib -i- Sultan Suleyman, Tarih Dergisi S 120, Eylul (Istanbul 1944).

(٣) چون اولدم بن آنوك قبرنده حاصل — نيچه هفته نيچــه آى ونيچــه ييل
آنكچــون مخلصــم أيوبى ايتلــوم — طبيعتــله ديـار نظمــه گيتــدوم

وهذا شاعر لم نعرفه يصور منزلة القبر وصاحبه فى قلوب الترك المؤمنة فيقول :

(شرّف هذا المرقد ذا النور البهى ، الصحابى الوفى مضيف النبى . وجلاء الأبصار بطهور من تراب هذا المرقد . فهو لأبى أيوب الأنصارى المجاهد)[١] .

والشاعر يجرى على أبى أيوب جميع صفاته التى أجلت من شأنه وعظمت قدره، لأنه الصحابى الوفى والمضيف والمجاهد فى وقت معاً.

ولا نستطيع القطع برأى فى هذا الشاعر من حيث كونه قديماً أو معاصراً ، وإن كان الاحتمال الأقوى أنه من القدماء كما يؤخذ من أسلوب شعره ، ولكن شاعراً تركياً يسمى جمال او غوز اوجل يعبر عن شعور الترك نحو أبى أيوب وحرصهم على التبرك بزيارة قبره، ومنظومته من روائع الأدب الدينى ، كما تختلف اختلافاً بيناً عما يشبهها فى نوعيتها من الشعر التركى القديم الذى سيطرت عليه نزعة التصوف ، وهى نزعة تصطنع التعبير بالرمز والإيماء ، وكان حتما لازماً أن يحمل هذا الشعر على غير ظاهره ، كما تزاحمت فيه أشتات الألوان والصور وخفى المصطلحات ، فانبهمت معانيه إلا على قلة من الراسخين فى العلم .

وشاعرنا الحديث لا يشبه المتصوفة إلا فى تلهب عاطفتهم ورقة شعورهم وشفافية روحانيتهم ، لأنه يتجافى عن شطحاتهم ، ولا يذهب مذهبهم فى مبالغتهم .

وهو مشبوب العاطفة الدينية وصّاف لما ملك عليه قلبه من صادق الإيمان ولقد وجد سبيله إلى هذا كله فى وصف زيارته لقبر أبى أيوب الأنصارى فقال :

(أنت يا من أنت بدر ليلى وشمس نهارى ، وفى روحى مالا ينطفىء من نارى . ابذل العون لى قبل ذبول منيتي ، خذ بيدى وأقلنى عثرتى . أنا العليم بأن عندك كل دواء، هذا المسافر الغريب مضنى، تناول قلبه بالجلاء . فلأنظر إلى وجهك المبارك نظرة ، وأحقق بذلك مناى مرة . لينشق الباب وتنهتك الحجب يا خالد ، يا من تملك كل قلب)[٢] .

فهذا الشاعر يذكرنا بالعاشق الإلهى الذى ينجلى عنه كل ديوان من دواوين الشعر

---

(١) مشرف ايلدى بومرقد پرنور فيض انوارى — رسول اللهى مهمان ايدين يار وفادارى
تراب مرقد پاكى مجلى ايلر ابصـــارى — مجاهد فى سبيل الله أبو أيوب الأنصارى

(٢) اى قرانلـــق كوكـده آيـم كونشـــم — اى روحمـده يانان ســونمــز آتشم
يتـش امدامـــه صـوله دن اميـــد — دوشيورم طوت المدن صيفى طـوت
سنـده در بيليـرم هرتـورلو عـلاج — بو غريب يولجـــى آچ باغريـنـى آچ
مبــارك يوزكــى كـــوره يم بـرآن — بن ده مرادمـــه ايـره يـم بـر آن
آچلســين شو پرده قالقسين بوكليد — اى كوڭللر شاهـــى حضـرت خـــالد

التركى القديم ولكن مع فارق ، فالقدماء من شعراء الترك متصوفهم وغير متصوفهم دأب على أن يظهر بمظهر عاشق الذات الإلهية . وكان النظم فى العشق الإلهى من التقاليد الأدبية التى توارثها الشعراء على مر القرون المتطاولة حتى أصبح طرق هذا الفن ضرورة لاغنية لشاعر منهم عنها ، وكاد يحبس فن الشعر عندهم فى قوالب معروفة وألفاظ مألوفة وتراكيب يمكن أن تحصى ، حتى كاد الذواقة يمل المعاد من كلامهم والمكرور من الصور البيانية فى شعرهم . مثال ذلك أن الحسناء والغناء والصهباء عناصر وحدة لا ينفصل عنها عنصر من عناصرها . فالحبيب رمز للذات الإلهية والخمر نشوة العشق الإلهى وما إلى ذلك من مجاز هو عندهم قنطرة الحقيقة .

وواقع الحال ، أن المعانى كلما تناهت فى دقتها ، تعسر أو تعذر التعبير عنها ، فاضطر البليغ إلى أن يستعير من المجاز ويجنح إلى المبالغة محاولا بذلك أن يبين عن دقاق معانيه ، ووجد أن لا مناص له عن هذا الصنيع.

أما شاعرنا ، ففى الصميم من فؤاده عاطفة دينية تموج لتفيض تعبيراً شعرياً من وحى السجية بمعنى الكلمة ، لأنه مبتدع وليس بالمتبع ، أى أنه يقول ما يقول على غير مثال ، وبذلك يختلف عن شعراء المتصوفة من الترك الذين أداروا جمهرة أشعارهم فى نطاق محدود للمعنى والمبنى ، حتى أصبح من العسير تمييز الطبع من التطبع عند كثرتهم الكاثرة . ولم يسر هذا الشاعر الحديث فى خطى أسلافه ولا حذا حذوهم إلا بمقدار ضئيل ، غير أنه نهج نهجهم فى وصف ما ينطوى عليه قلبه من عاطفة المحبة لأبى أيوب الأنصارى . وكان المتوقع منه أن يلف لف القدماء فيشبهه بجميلة تجالسه يحمل النسيم إليه العطر عن غدائرها ، وتشاربه شعاعاً فى الكأس من خديها . ولكن الشاعر صادق فى عاطفته ولا يحاول البلاغة كثيراً فى التعبير عنها . فكان كلامه عفو الخاطر ، وصور به ما لم يسعه كتمانه من شعور جاشت به نفسه المحبة لذلك الصحابى الجليل الذى سما عند الترك إلى منزلة الولى الكريم.

وهو يناجيه بلسان الترك جميعاً، حين يبسط إليه كف الضراعة سائلا إياه أن يهدى قومه سبيل الرشاد ويبصرهم بالتى هى أقوم ، لأن حشود المؤمنين تنثال على ضريحه من كل صوب ، والأيدى مرفوعة بالدعاء ، وما أشبهها بأيد يرفعها طلب النجاة . والقلوب تهتف به أن يهيئ الأسباب المرشدة إلى صراط الله المستقيم.

(اهدنا سواء السبيل نحن العالمين ، تأمل كيف احتشد على عتبتك القادمون)[1] .

ثم يعرض بالوصف لهؤلاء الزائرين ، فيقول إن قلوبهم تحترق بمحبته كما يقول إن

---

(١) حقيقــت يولنى كوســتربـزه خلــق   باق نصل طوپلا نمش در كاهكده خلق

بينهم زمنى وبائسين ينوطون أملهم بكراماته ، ومنهم رقيق الحال وصاحب الثراء ، ورفيع الشأن وخامل الذكر . ويمضى فى وصف هؤلاء الزائرين تفصيلا إلى حد تمييز العسكريين منهم برتبهم ، ثم يختم منظومته ببيتين يقول فيهما :

(ودخل بيننا من السياح أربعون أو خمسون ، منهم الأسود والأبيض الجبين . وكل منا له حاجة إليك ، يا مولانا ، لاشك أنها مقضية عندك)[١].

ونحن ندرك من تلك المنظومة أكثر من حقيقة . الأولى أن أبا أيوب أعظم أولياء الله منزلة عند الترك المتسننين، وهو يشبه فى ذلك سلمان الفارسى رضى الله عنه عند الشيعة، والثانية أن قبره لا يزار التماسا للبركات وكفى ، بل ولقضاء الحاجات والدعاء بالفرج بعد الشدة ، إيمانا منهم بكراماته ومعجزاته لأنه متمكن عند المولى عز وجل مقبول الشفاعة.

وكأن زيارة قبره ليست لمجرد ما فيها من عظة وعبرة وحث لأولى الألباب على أن يتذكروا . وفى باب استحباب زيارة القبور من كتاب رياض الصالحين للنووى قوله صلوات الله وسلامه عليه (فمن أراد أن يزور القبور فليزر فإنها تذكر بالآخرة).

وللزائر أن يذكر أن الميت سابق وهو به لاحق ، فالموتى سلف والأحياء بالأثر . وبذلك يرجو رحمة الله ويخشى عذابه ويهتدى إلى طريقه السوىّ . والترك فى صنيعهم هذا يذكروننا بالشيعة الإمامية فى عنايتهم بزيارة قبور الأئمة.

فلقد شيدوا عليها الأبنية والقباب ، لأن الأئمة أوصوا شيعتهم بزيارة القبور ورغبوهم فيها لأنها من أفضل الطاعات والقربات بعد العبادات الواجبة ، ومن خير المواقع لاستجابة دعوة الداعين ، ومن زار قبور الأئمة كان الأئمة شفعاءه يوم القيامة[٢].

أما الحقيقة الثالثة، فندركها من قوله إن السياح من كل الأجناس فى زمرة من يزور أبا أيوب من المسلمين، وهذا ما يغير عرفاً كان سائداً فى استانبول إلى ماض غير بعيد. فقد كان مسجد أبى أيوب الأنصارى هو المسجد الوحيد فى استانبول الذى لا يزوره إلا المسلم[٣].

ويؤيد ذلك ما قيل من أن أحد رجال السلك السياسى فى استانبول تخفى بوضع الطربوش على رأسه ، وفى صحبة أحد خدّام سفارته ، انتهز من الحراس غفلة ووجد

---

(١) كيرمش آرامزه قرق اللى سياح — كيمينك رنكى آق كيمينك سياه
هريـــرمـــزك بــر ديلـــكى وار — سلــطانمز البت اولوربزه يــار
(٢) محمد رضا المظفر : عقائد الشيعة : ص ٨٢ و ٨٣ (النجف ١٩٥٤).
(3) Monroe : Turkey and Turks. p. 276 (London MDcccevl).

سبيله إلى داخل ذلك الضريح المقدس الذى لا يدخله إلا مسلم كما هو الشأن فى دخول الكعبة[١].

ويشبه هذا ما ذكره الكاتب الفرنسى پيير لوتى فى قصة من قصصه[٢]، وأحداثها من نسج الخيال على الأرجح، إلا أن زيارته لاستانبول وعلمه بما حوله من شئون الترك، مما يضع كلامه أو طائفة منه فى كفة الرجحان. فهو القائل إن مسجد أبى أيوب فى نهاية ما يعرف بالقرن الذهبى، وقد أقامه السلطان محمد الثانى فى موضع قبر أبى أيوب الصحابى. والدخول إليه كان فى كل العصور محظوراً على غير المسلمين، بل وما كانوا يضمنون مواجهته. وهذا الأثر مبنى بالرخام الأبيض، وهو فى موضع منعزل محاط بالمقابر من كل صوب وتشاهد قبته ومنارته عبر شجيرات السرو العتيقة، وطرق تلك المقابر تحت وارف الظلال، وأرضها بالحجارة والرخام مرصوفة، وعلى جانبيها أبنية مازالت محتفظة ببياض رخامها على قدمها، وبياضها متألق إلى جانب سواد الأشجار، ومئات من القبور المذهبة والمحاطة بالورورد تطل على تلك الطرق التى قل نورها، وهى قبور لأعاظم الدولة وأكابرها، أما قبور مشايخ الإسلام، فلها مقصورة فى إحدى تلك الطرق الحزينة.

ثم يوالى الكاتب الفرنسى كلامه ليقول إنه استطاع دخول الفناء الثانى للمسجد فى صباح اليوم السادس من شهر سبتمبر عام ١٨٧٦ .

وقد أقفر المكان إلا منه ومن درويشين يكاد قلبهما ينخلع رعباً من خطورة تلك المغامرة، فهذا الموضع أعظم المواضع قداسة فى استانبول، وما شاهدته قط إلا عين مسلم.

ويدعى أنه سكن حى أيوب. فيقول إن الفصل كان فصل الشتاء، ويصف قطرات المطر والريح الهوجاء وهى تطرق نافذة داره الموحشة، ولا صوت لغير المطر والريح فيما يخيم حوله من سكون، والمصباح التركى العتيق المتدلى فوق رأسه هو وحده ما يشغل فى حى أيوب.

ثم يقول إنه قلب الإسلام وفيه المسجد المقدس الذى يحتفل فيه بجلوس سلاطين العثمانيين على العرش، ولا يسكن هذا الحى إلا دراويش بلغت منهم الشيخوخة وحراس للمقابر[٣].

تلك صورة لقبر أبى أيوب كما رسمها كاتب ناصع البيان يستهويه الشرق بروحانيته ويثير فيه الإعجاب والعجب، ويستندى منه قريحة تفيض شاعرية وهى تتمة لتلك الصورة

(1) Davey : The Sultan and his Subjects. p. 273 (London 1908).

(٢) راجع تلك القصة فى كتابنا فارسيات تركيات، ص ١٧٦ ـ ١٨٢ (القاهرة ١٩٤٨).

(3) Loti : Aziyade. pp. 49 (Paris).

التى تجلت لنا فى منظومة الشاعر التركى الحديث ، ولنا أن نضيف إليهما ثالثة لتكون تكملة عليهما وإن اختلفت فى أشياء عنهما .

فلمقبرة أبى أيوب ذكر فى منظومة رائعة للشاعر التركى محمد عاكف المتوفى عام ١٩٣٦ ، وعنوانها (المقبرة).

ولعلنا أحسنا صنعاً بالتحفظ ، أو لم نرد التجافى عن الدقة ، حين قلنا إن ذكراً ورد للمقبرة ولم نقل إنه وصف بما يرد على الخاطر من أشتات معانى الوصف . ولتفسير ذلك نقول إن شاعرنا لم يتعلق بوصف الهيئة وهى ملء عينيه ، بل كان تعلقه بما يتصل بخياله وينبنى على شعوره ويموج فى تأملاته وخطراته ونظراته . فهو متأمل متخيل لا يميل بحال إلى استغراق الصفات ويكاد يقطع النظر عن الملامح والسمات .

لا بدع فى مثل هذا من صنيعه ، لأنه الملقب بشاعر الإسلام ، وشعره تغمره من الدين نورانية وروحانية ، ونظرته إلى دنياه على أنها دار ممر لا دار مقر ، والمؤمن الحق هو المتزود من الفانية للباقية .

وهذا ما حرك أعماق الشاعرية فيه حتى فاضت بهذا المثال من قوله فى الكتاب الأول من مجموعته الشعرية الموسومة بصفحات[(١)] .

(فى صباح الأمس نحو أيوب مضيت ، تجاوزت سور المدينة وخطوت ثم خطوت . وتبدل الأفق، وأمامى دنياى القديمة انطوت ، وبدا لى عالم المقبرة أرجاؤه رحبت . غير أنه كان للخلود بحرا ، تتجمد كل موجة فيه حجرا . وما كانت على الشط وقفتى ، بل أبعد البعيد بلغت . وجلست وهناك إلى حجر استندت . وقد تلفف الصمت كل ما على اليسار واليمين ، والشجر حاضر القلب بدلالة اليقين ، والأرض فى سكون . ولكن ، تلك الرنمة الإلهية من أين يأتى صدى لحنها ، والذى خلق الموت والحياة من قولها)[(٢)] .

---

(1) Mehmed Akif : Safahat. SS 34, 35 (Istanbul 1944).

(٢) كچن صباح ايدى أيوبه دوغرو چيقدم
آشيب ده سورنى شهرك آتنجه برقاچ اديم
افق دكشدى او نمدن چكلدى اسكى جهان
كورندى قارشيده فسحت سراى قبرستان
فقط او برقوجه دريای سرمديتدى
كه هر حظيرهء سنكى موج منجمدى
كنارنده دورميه رق كيردم اك درين يرنه
اتوردم ارقامى ويردم ده طاشلرك برنه
رداى صمته بورونمش بوتون يسار ويمين =

وهذه الصور المتشاكلة المتكاملة تثير فينا رغبة فى مزيد من علمنا بزيارة قبر أبى أيوب.

ولقد درج الترك على عادة مألوفة إلى يومنا هذا ، وهى أن يفرضوا على صغارهم أول عهدهم بالتعليم فى مدارسهم[1]، أن يمضوا إلى قبر أبى أيوب لزيارته . وهناك يلتمسون البركات والرحمات وألسنتهم تلهج بالدعاء . واستفتاح الصغار حياتهم التعليمية بتلك الزيارة، برهان قاطع على أن لأبى أيوب فى قلوب الترك مكانا ومكانة ، وليس من ريب فى أن تلك التجربة الأولى لابد أن يكون لها أثرها فى نفوسهم الفتية ، وحكمها الموجه لفكرهم وشعورهم بعد أن يمتد العمر بهم ، والترك بذلك حريصون على تلقين الخالف أمهات الفضائل عند الجيل السالف ، وهم يريدون للأبناء أن يكونوا أمناء على وديعة الآباء، وأن يشبوا على ما شاب عليه أهلهم وقومهم من توقير وتقديس لمضيف الرسول وعظيم المجاهدين . وإذ يكون الدرس الأول غير منسىّ الأثر فى نفس الصغير ، فلاشك أن الترك أحسنوا صنعاً باختيار الوقت الأفضل لتلقين أبنائهم ما يحبون لهم أن يذكروه ولا ينسوه .

ولهم عادة أخرى مع صغارهم تتعلق بأبى أيوب ، فهم إذا عقدوا العزم على ختانهم، حملوهم معهم لزيارة قبره .

وكان ختن الطفل مناسبة عامة والاحتفال بها من أصيل التقاليد التى يأخذ الترك بها، واحتفل السلاطين بتلك المناسبة أعظم احتفال ، مما أدى إلى ظهور فن شعرى فى أدب الترك القديم ، يتضمن وصف ما يقام فى تلك الاحتفالات من ولائم . ويسمى ما ينظم فى هذا الفن (سورنامه) وهى كلمة فارسية بمعنى كتاب الضيافة أو الحفل . ونضرب لذلك مثلا منظومة للشاعر (نابى) تتألف من خمسمائة وسبعة وثلاثين بيتا نظمها عام ١٠٨٨ للهجرة ووصف بها ما أقيم من حفلات دامت خمسة عشر يوماً حين ختن السلطان محمد الثالث أولاده[2].

ونحن وإن كنا لم نملك دليلا نقليا من الأدب والتاريخ على زيارة أبناء السلاطين لقبر أبى أيوب كأبناء الشعب ، لا نعدم دليلا عقليا يؤيد أنهم ما كانوا ليخرجوا على مألوف

= حضور ايچنده آغا جلر سكون ايجنده زمين
فقط بويستـــه لاهـــوت نردن عكس ايديور
كه الذى خـلق المـوت والحـيـاة ديـــور

(1) Ogut : Meshur Eyyub Sultan. S 217 (Istanbul 1957).
(2) Agah Sirri : Nabin'in Surnamesi. S 5 (Istanbul 1914).

المؤمنين ، وهم المعروفون بأنهم المتمسكون بعرى الدين الحنيف .

وهذه أبيات لا نستطيع نسبتها إلى قائلها ننتخب منها ما يصور لنا حرمة هذا القبر ومزية زيارته والحد البعيد الذى تناهى إليه فى قدسيته.

(هذا أبو أيوب الأنصارى ، هذا مالك ملك الدين ، تفخر الأرض على السماء قائلة إنه فىّ دفين ، إنه حامل لواء رسول رب العالمين ، قال زرت مرقده جبريل الأمين ، هذه جنات عدن فادخلوها آمنين . معدن طبعه يظهر من الشجاعة جوهراً ، وفى سبيل الدين هذا بذل الروح كم من الورى ، إن للإسلام جيشا ، كان على استانبول جيشا غامرا ، وكان مرقده الطهور للجنة العالية مظهراً ، هذه جنات عدن فادخلوها آمنين)(١) .

وقبل أن نتابع القول إلى غاياته فى قبر أبى أيوب نقف وقفة للنظر إلى الوراء نظرة ، ونذكر أنه بينما كانت المعاول تنحّى الثرى عن مرقده فى الأرض. وكأنما كانت الأيدى الخلفية التى سخرها الله لتميط اللثام عن وجه حقيقة قدر لها خلود البقاء بعد أن طال عليها الخفاء ، انبجس تحت ضرباتها وما أشبهها بخفقات الشوق ، نبع من ماء عذب فرات ، وسرعان ما صنع له حوض يصونه أن يضيع فى تدفقه . وطالما ظمئت أرواح المؤمنين فى الدهر الطويل إلى رشفات من هذا الماء ، فتزاحموا عليه بالمناكب ليصيبوا منه ما يشفى غليل روح من حنينها إلى نفحة من نفحات النبى ، جاءهم بها مضيفه الكريم . وإذ كان هذا الماء متعلقا فى نفوسهم بمعانى الإيمان ، فلابد أن تكون له عندهم أعاجيب وأعاجيب. ويحمل الزوار إلى الضريح الصبر والعنبر والشمع الأبيض ، وهو مفتوح على مصراعيه لهم ، وبه مصباحان منيران ليل نهار . وعند رأسه علم مثبت فى الأرض أخضر اللون ، وقد أقيم على أنه رمز لمهمة أبى أيوب المجاهد لدى الرسول ﷺ(٢). وهذا العلم فى ضريحه وما يقال عن سبب وجوده ، مذكرنا بما سبق لنا أن خضنا فيه متعلقا بحقيقته ورمزيته .

---

(١) أول أبو أيوب الأنصارى أول شاه ملك دين
بنده مدفون اولدى ديو چرخه فخر ايلر زمين
اول علمدار رسول الله رب العالمين
مرقدن زيارت ايدوب ديدى جبريل امين
هذه جنات عدن فادخلوها آمنين
كان طبعى كيم شجاعت جوهرن قيلدى عيان
بو طريق دينه قيلمشلر هزاران فقد جان
لشكر اسلام استانبوله اولمشدى روان
مرقد پاكى ويرر فردوس اعلان نشان
هذه جنات عدن فادخلوها آمنين

(2) Jouanin, Van Gaver : Turquie. p. 77 (Paris M Dccccxl).

وأيا ما كان ، فنحن ندرك من وجوده فى الضريح رمزاً إلى اعتزاز الترك بأبى أيوب المجاهد فى سبيل الله . ولاشك أن صفة المجاهد أغلب عليه وهو فى موضع استشهاده . وإن كان لا ينبغى لها أن تنسينا صفة أخرى أهم وأرجح ، وهى المضيف ، فياطالما حارب مع الرسول ﷺ المحاربون ، واستشهد المستشهدون ، ويااطالما فتحت أرض العرب والروم جوفها الرحيب لتطوى من قتلوا فى سبيل الله ، غير أن شهادة كل هؤلاء من جند وقادة وحملة للعلم . لم تسم بهم إلى تلك الذروة العالية التى سمت الضيافة إليها بأبى أيوب رضى الله عنه .

ولكن، حاشا لهذا أن يدفعنا إلى تناسى الصورة الرائعة التى شاهدناها له وهو يطوف بساحة الوغى محمولا على أعناق المجاهدين ، وما كان من تساؤل قيصر عن حقيقة أمره مما كان سببا فى توقيره وتعظيم شأنه وإقامة قبر له عليه قبة يسرج فيها ، وإيمان الروم بكراماته إيمانا وطيدا ، جعلهم إذا احتبس المطر يقصدون إلى مزاره للاستسقاء فيسقون.

وذكر شنايدر أن فى القسطنطينية كثيراً من قبور الصحابة ، وأحصى منها خمسة عشر قبرا بينها قبر أبى ذر الغفارى وأبى أيوب الأنصارى ، ثم قال إن المصادر اليونانية لم تشر إلى قبر أبى أيوب ، وكشفه أمر يكتنفه اللبس والغموض.

ثم قال متظننا إن القوم بحثوا عن قبره حين تعرضوا بالبحث عن الأحاديث التى قيلت فى فتح القسطنطينية ، إلى أن أطلق الحكم مجملا ليرى فى الوجود الأسطورى لقبور الصحابة فى بلاد الإسلام مغزى سياسيا ، فوجود هذه القبور فى مثل تلك البقاع مؤيد حق المسلمين فيها(١). وهذا من كلامه ظاهر البطلان يأباه كل من له مسكة من فهم ، ولا يؤيده عقل ولا نقل.

ونحن لا ننكر وجود قبور للصحابة فى القسطنطينية ساندوا أبا أيوب فى الجهاد ، غير أننا لا نعرف من أخبار أبى ذر رضى الله عنه أنه مات فى تلك المدينة ، بل نعلم أن موته كان فى الربذة التى أقام فيها بعد خلافه مع عثمان(٢) .

وكانت وفاته عام ٣٢ هجرية أى قبل وفاة أبى أيوب بثمانى عشرة سنة . وهو القائل لزوجه الباكية قبل أن يغمض عينيه عن هذه الدنيا ، لا تبكى ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم وأنا عنده فى نفر من أصحابه يقول : ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين وكل من كان معى فى ذلك المجلس مات فى جماعة وقرية ، ولم

---

(1) Schneider : Die Blachernen, Oriens, SS 113, 115. N 1, V4, (Leiden).

(٢) خالد محمد خالد : رجال حول الرسول ، ص٩٥ جـ٤ (القاهرة ١٩٦٩).

يبق منهم غيرى ، وها أنذا بالفلاة أموت، فراقبى الطريق فستطلع علينا عصابة من المؤمنين، فإني والله ما كذبت ولا كذبت.

ووقف الفاتح على الضريح وقفا له بيان فى وثيقة حررت بالعربية ، وهى تتألف من مائة وسبع وتسعين ورقة محفوظة بدار الوثائق فى أنقرة . وفى طوب قاپوسراى وثيقة وقف أخرى . كما وقف أوقافا على زاوية أقامها بجوار الضريح وأنشأ بجانبه مبرة ومدرسة مؤكداً فرط اهتمامه وإجلاله له ، والأرجح أن يكون تاريخ بناء تلك المدرسة بعد بناء مسجد أبى أيوب الذى تم عام ٨٦٣ هجرية .

ويؤخذ مما جاء فى وثائق الوقف ، أنها كانت فى حرم المسجد ، ولها قباب محلاة بالنجوم ، وتحوى ست عشرة حجرة ، وفيها كان طلبة العلم يقيمون ، وبها خزانة كتب عامرة لها خازن موكل بحفظها . أما من يتصدرون لإلقاء الدروس بها ، فكان الواحد منهم يتقاضى فى اليوم خمسين درهما كمرتب جار من قبل السلطان ، ومن فى المدرسة يسكنون ويطعمون لوجه الله . أما المبرة المقامة إلى جوارها ، فأعدت لحلول الوافدين من الفقراء أضيافا بها[١].

ويحدثنا مولانا محمد نشرى ذلك المؤرخ العثمانى القديم ، وهو يستغرق صفات السلطان محمد الفاتح من حيث كونه رجل برّ وتقوى ، فيقول إنه ابْتَنَى مسجدا لمن يسمى الشيخ وفازاده ودارا للصوفية يمارسون فيها مجاهداتهم ورياضاتهم الروحية ، ثم يذكر أنه أقام مبرة ومدرسة فى محلة أبى أيوب الأنصارى ، وضريحا على قبره ، وشيد حمامات عدة لم تر الدنيا من قبل مثيلا لها [٢].

وهذا كله واضح فى دلالته على منزلة أبى أيوب عند الترك ، وكيف كانت شخصيته سببا فى السمو بمظاهر الدين الحنيف إلى أعلى الذرى ، وإعزازها وإكرامها إلى أبعد مدى.

❊ ❊ ❊

(1) Suheyl Unver : Fatih Kulliyesi ve Zamanillim Hayati, SS 69, 154, 155 (Istanbul 1946).

(٢) مولانا محمد نشرى : جهاننما ، ص١٨٢ (لايچيك ١٩٥١).

الفصل السادس : مسجـــــده

فى خبر السلطان محمد الفاتح مع الشيخ آق شمس الدين ، حقيقة ما برح أصحاب التواريخ يذكرونها على أن لها ثباتاً فى اليقين لا يتزعزع ، وانبنى عليها من التقاليد ما تمسكت به الدولة العثمانية عبر القرون ، وأظهر لها سلاطينها من آيات التبجيل والوفاء ، ما لم يمكنهم من طرحه والتحول عنه إلى سواه .

فلما ألهم الله الشيخ آق شمس الدين أن يقع على معرفة موضع مرقد أبى أيوب تحت الثرى ، قدم السلطان سيفاً نطقه به ، فكان من عادة جميع سلاطين آل عثمان من بعد أن يتقلدوا سيف سلفهم عثمان بعد تربعهم فى دست السلطنة بأيام خمسة أو ستة ، وذلك فى حفل يعرف بتقليد السيف.

وكان هذا الحفل يقام فى ذلك المسجد الذى شيده محمد الفاتح لأبى أيوب الأنصارى. وكيفية الخبر فى ذلك أن السلطان أمر أول ما أمر بإقامة قبة على القبر، وما تمت إقامتها حتى أمر ببناء مسجد شرقى القبة ذى منارتين . وافتتح الفاتح مسجد الصحابى فى جمع غفير من العلماء والفضلاء والوزراء بتلاوة للقرآن الكريم ودعاء بالعربية وآخر بالفارسية .

ولتعليل الكلام بالعربية والفارسية ، نقول إن العربية عند الترك كانت لغة القرآن الكريم والحديث الشريف والعلم ، والعلم بها مفروض على كل تركى أخلى ذرعه للدرس والتحصيل ليدخل فى زمرة أهل الدين والعلم والفضل، أما الفارسية فكانت لغة الأدب الرفيع والثقافة العالية التى تأثرت بها لغة الترك كما انبثق أدبهم فى كنف أدبها وأصبح صدى له وصورة منه ، وكان العلم بالعربية والفارسية إلى جانب التركية ضرورة ثقافية لا غنية لتركى عنها كما ندرك من تراثهم الروحى والعقلى فى شتى مناحيه .

وهذا ما يلزم منه أن يكون تنظيم الحفل بتلك الكيفية ، رغبة فى التعبير عن النزعة الإسلامية فى الدولة العثمانية بعامة ، ومبالغة فى تمجيد ذكرى أبى أيوب بلسان العلماء والبلغاء على الأخص .

ولذلك الحفل سمة روحية أخرى نتلمحها مما قيل فيه من أن كل الحضور فى المجلس رفعوا صوتاً واحداً متردد الأصداء قائلين (آمين) وعيونهم تفيض من الدمع ، مبتهلين إلى روح الرسول ﷺ وروح مضيفه رضى الله عنه متضرعين إلى الله أن يبسط على الدولة جناح رعايته ، ثم قرأوا الفاتحة .

وافتتاح السلطان لمسجد أبى أيوب مع كل ما سلفت الإشارة إليه من مظاهر إجلال

الدين وعده أول وأعظم ما تعز به الدولة العثمانية كأساس لكيانها تحافظ عليه ليحفظها وتأخذ بتعاليمه لأن فى الأخذ بها صلاحها ، لاشك مرتبط بأبى أيوب وما كان من إقامة السلطان مسجداً له يتوج فيه السلاطين جميعاً من بعد ، فمثل هذا المسجد لن يكون إلا أعظم المساجد منزلة عند العثمانيين لأنه يتيح لعاهل دولتهم أن يمسك بأزمة الحكم فيه فى رمزية دينية رائعة هى المثال الأروع للتعبير الروحى الذى يذكر السلطان بعظمة الرحمن ، ويبعثه على أن يسأله التأييد لدولته والنصر لجنده . كما يلفت رعاياه إلى أنهم فى ظلال وارفة للمسجد ، فعليهم أن يقيموا عمود الدين ويلتفوا حوله وهم يتقون الله حق تقاته .

وهذا كله ما يجعل للصحابى الجليل ذكرى لا نسيان لها على طول الزمان ، ويذيل اسمه بين الناس أجمعين بالثناء والحمد ، على أنه أكرم وفادة نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، فكان صاحب الفضل الذى لا يجحد ، كما جاهد فى سبيل الله وقضى نحبه فى أرض غريبة ، وكان قبره ومسجده خير ما يذكر المسلمين بمعنى الجهاد ، ذلك الجهاد الذى لم يدرك العثمانيون من حروبهم معنى سواه .

ولقد جعل سلاطين العثمانيين بعد الفاتح قبر أبى أيوب مناطاً لفضل عنايتهم ، لأنهم نظروا إليه نظرتهم إلى شعار لقوميتهم الإسلامية ومنار لدولتهم العلية .

فها هوذا السلطان أحمد الأول يصدر أمره فتزين جدران القبر بجميل ونفيس من الصينى ، ويكسى باب الضريح بالمرمر الأبيض ، كما يحاط القبر الشريف بسياج من قضبان الفضة . كان ذلك فى عام ١٠١٦ هجرية .

وتسلطن مراد الرابع عام ١٠٣٢ هجرية ورأى أن ينسب إليه شرف المشاركة فى تعهد المسجد بفضل من عنايته ، فجعل الفضة الخالصة جزءاً من أجزاء المنبر.

وكذلك شأن السلطان الذى خلفه وهو السلطان إبراهيم ، فقد وضع شمعدانين كبيرين نفيسين فيه.

وفى عهد السلطان أحمد الثالث الذى تملك عام ١١١٥ هجرية ، شب حريق حول المسجد وامتدت ألسنة اللهب إلى منارتيه ، فأمر السلطان بهدمهما لإعادة بنائهما(١) .

أما السلطان محمود الأول الذى اعتلى العرش سنة ١١٤٣ هـ . فنقل إلى ضريح أبى أيوب من الخزانة السلطانية حجراً عليه أثر قدم النبى الشريف . ولتوضيح ذلك نقول إن السلطان سليما لما عاد من مصر إلى استانبول ومعه بعض الآثار النبوية ، جعل لها حجرة خاصة فى قصره ، وكان يحتفل فى شهر رمضان بزيارتها مع عظماء دولته(٢) .

(1) Ayverdi : Fatih Devri Mimarisi. S 216 (Istanbul 1953).

(٢) أحمد تيمور : الآثار النبوية ، ص٦٥ (القاهرة ١٩٥٥).

وهذا صريح فى أن ذلك السلطان أراد بذلك أن يتحف الضريح بتذكار للنبوة يزيده رفعة على رفعة، كما يعقد الصلة تلميحاً إلى صلة صاحب الضريح بصاحب الرسالة ﷺ.

وفى سنة ١١٧٩ للهجرة وعلى عهد السلطان مصطفى الثالث زلزلت الأرض فتصدع محراب المسجد ، وما نمى الخبر إلى السلطان حتى أصدر أمره برمه.

وشاء السلطان الذى تلاه على عرش آل عثمان أن يكون له ثواب وفخر العناية بقبر أبى أيوب ، فأمر بتجديد نوافذ الضريح الست وبابه الداخلى .

أما سليم الثالث ، فأعاد بناء المسجد بعد أن هدمه زلزال وقع عام ١٢١٢ هـ.

ولم يقتصر اهتمامه على المسجد ، بل أهدى إلى الضريح مصحفاً كتبه بيده جده السلطان أحمد وزينه بأروع ما استطاع الصناع صنعه من ثريات. وعلى المسجد وقف نفائس الكتب وشيد سبيلا بجواره.

وأمرت الأميرة خديجة ابنة السلطان عثمان الثالث ببناء دار صغيرة تجاه باب المسجد لتدفن فيها (١).

والذى يتحصل من ذلك ، أن السلاطين لم يفرقوا بين مسجد أبى أيوب وضريحه فى ضرورة إجلالهما والعناية بهما ، على أنهما من آثار مضيف النبى ﷺ.

كما أن مسجده إنما يستمد الرفيع من منزلته والعظيم من شهرته ، بفضل القبر الذى يجاوره.

وورد ذكر لمسجد خاص بالخصيان السود ضمن وصف لقصر السلطان فأشار الكاتب إلى منصة كبيرة من الرخام إلى جواره ذات درجات على جانبها ، وكان السلاطين يترقون فى تلك الدرجات حتى يقفوا عليها للركوب إلى مسجد أبى أيوب المقدس منها(٢) .

ونحن وإن عدمنا فضل تفصيل لكيفية ذلك ، لواجدون فيه ما يستدل منه على ضرورة أن يكون متعلقاً بنظـام معين وعرف معلوم لدى سلاطين آل عثمان .

وقبل أن نبسط القول فى حفل تقليد السيف أو تتويج سلاطين آل عثمان فى مسجد أبى أيوب الأنصارى ، نمضى مع الزمان أخرا مائتين من الأعوام أو ما يقرب ، لنعود إلى عهد السلطان عثمان الأول الذى تنتسب إليه دولة العثمانيين . فيقال إن السلطان علاء الدين السلجوقى أيقن قبل موته بأن دولة السلاجقة فى آسيا الصغرى تسير فى خطى الانحلال وفساد الحال إلى شفير الهاوية . وأشفق من ذلك وأخذه الحزن ، فاستدعى عثمان لما عرف

(1) Hammer - Purgstall : Geschichte des osmanischen Reiches S 99 Neunter Band (Grxz 1963).

(2) Penzer The Harem. p. 126 (Edinbargh 1936).

عنه من رجاحة عقله وسداد رأيه وشهرته بشجاعته ، ووكل إليه أن يقوم بالأمر من بعده ، وأوصاه بإصلاح الحال وإقامة الملك على وطيد الدعائم . وبهذه الوصية أورث علاء الدين عثمان ملكه .

وكان جلال الدين الرومى عظيم المتصوفة فى مدينة قونيه شاهدا على تلك الوصية ، ولما مات علاء الدين ، دعا الأمراء عثمان إلى تسلم مقاليد الحكم ، ووضع جلال الدين الرومى تاجاً على رأسه بيده كما نطقه بسيف .

وجرى عرف سلاطين آل عثمان إلى آخر عهدهم حين يعتلون العرش أن يقصدوا إلى ضريح أبى أيوب فى استانبول ، حيث يشد وسطهم بالسيف من ينحدر من سلالة جلال الدين الرومى(١) .

هذا خبر تنسب به إلى أصلها ، عادة السلاطين فى قصدهم إلى مسجد أبى أيوب لتقلد سيف عثمان . ونلاحظ قول القائل إنهم كانوا يقصدون إلى الضريح لا إلى المسجد ، ولنا أن نستنبط من ذلك وثاقة ارتباط المسجد بالضريح فى فكر من ذكر ذلك فنحن لا نعرف من قال إن الحفل كان يقام فى الضريح.

أما من يقلد السلطان السيف من سلالة جلال الدين الرومى ، فهو من يعرف بچلبى افندى ، من دراويش المولوية وفى مدينة قونية مركزهم ، ويلقب رؤساؤهم بچلبى نسبة إلى چلب بمعنى الله فى التركية القديمة أو إلى كلمة صليب فى العربية التى كانت تطلقها قبائل الترك فى آسيا الوسطى على قساوسة النساطرة كلقب تعظيم لأنهم كانوا من أهل العلم ، ثم تطور معناها فأطلقت على أهل العلم والفضل من الترك . وكان لأتباع هذه الطريقة الصوفية أثر فى حياة الترك ، لانتشار كثير منهم بين طبقات الشعب ونشرهم مبادئ التسامح والفكر الحر(٢).

وفى فصل بعنوان (قرية تركية مقدسة للترك) يصف لنا كاتب أوربى حفل تقليد السيف نقلا عن تركى فى أرذل العمر شهده على عهد السلطان عبد المجيد أى منذ قرابة مائة وخمسين عاماً فقال إن هذا الحفل شبيه بحفل تتويج ملوك الإنجليز فى كنيسة وستمنتر ، ويرأسه نقيب الأشراف ليفتتحه بقراءة خاصة ، ورئيس الدراويش المولوية الملقب بچلبى افندى يقدم من مدينة قونية للاشتراك فيه ، وإنه لحفل له ماله من عظمة وعليه ما عليه من أبهة . ثم يقول إن تلك كانت صفاته غير أن السلطان عبد الحميد الثانى جرّده بمقدار

(١) د. رضا نور : تورك تاريخى ،ص١٥١ و ١٥٢ ، اوچنجى جلد (استانبول ١٩٢٤).

(2) Luke : The City of Dancing Dervishes. pp. 11, 22 (London 1914).

النصف من تلك الصفات ، ولم يشرح الكاتب ذلك ولا علله.

ثم ذكر أن السلطان خرج من قصره محفوفًا بموكب يجمع جميع أفراد حاشيته ، وكان على جواد سرجه من خالص الذهب وغطاؤه محلى باللآلىء ، ومضى السلطان فى موكبه إلى مسجد محمد الفاتح ، وبعد أن زار قبره ، سمت نحو مسجد أبى أيوب ، يتبعه عظماء الدولة وشيخ الإسلام والصدر الأعظم وتلت موكبه عربات مذهبة مزدانة بزينات براقة تجرها ثيران بيض على قرونها الطوال خرز لامع ، وهي تقل نساء القصر.

وكان المشاهدون الواقفون على جانبى الطريق فى حشود وحشود ، يستطيعون رؤية الخصيان فى ثيابهم الحمر المزركشة ، والباشاوات وفى طرابيشهم ريشات محلاة بالجواهر . ويكرر الكاتب قوله إن أقل القليل من مظاهر تلك الأبهة تبقى حين تولى السلطان عبد الحميد الثانى فى السادس من سبتمبر سنة ١٨٧٦ . وإن شوهد حملة الرماح فى حمر الثياب المحلاة بخيوط الذهب وفى عمائمهم ريشات ترتفع بمقدار ذراعين ، وقد لبس شيخ الإسلام قباءه الأخضر ، والعلماء عمائم فى بياض الثلج.

ثم يصف المشاهدات فيشبههن بالأزاهير وقد بدت فى كل موضع من المقابر وأطللن على طرقات هذه القرية العجيبة للأحياء والأموات(١).

وينبغى لهذا الكلام أن يكون موضع نظر ، فأول ما يحركه فى فكرنا أن الكاتب أعظم اهتماماً بما يقع منه موقع الغرابة كسائح يجذب نظره المنظر، منه بما يثير فى الباحث التساءل للتعليل والتفكر والتدبر . فقد أفاض فى وصف مايملك على المشاهدين والمشاهدات إعجابهم فى طريق المحتفلين إلى مسجد أبى أيوب ، غير أنه لم يخص ما يدور فى هذا المسجد إلا باشارة أغنته عن طويل العبارة . وليته دخل بنا المسجد ولم يتركنا على قارعة الطريق نتنسم الخبر ونريد لنعرف حقيقة ما يدور من أمر دون أن نحقق بغيتنا . وذكر أن السلطان عبد الحميد لم يحفظ على الحفل أبهته وبهاءه فى نهاية صفحة من كتابه ليكرر ما قاله فى منتصف الصفحة التالية ، دون أن يسوق مثلا أو يحدد لذلك سبباً . وهذا من كلامه مناقض لما جاء فى مرجع آخر ، يقول إن ذهاب عبد الحميد إلى المسجد كان فى موكب حافل لم يسبق له مثيل(٢).

وبذلك أوقعنا فيما يوجب الشك ، كما أنه لم يصب فى تعيين تاريخ تولى السلطان، فاضطرنا إلى تصويبه ضمن كلامه .

---

(1) Davey : The Sultan and his Subjects. pp. 423, 424 (London 1907).

(٢) محمد فريد : تاريخ العلية العثمانية ، ص٣٢٦ (القاهرة ١٩١٢).

ومهما يكن من أمر هذا الكاتب ، فقد عرض علينا صورة عين فيها ما راقه من ملامحها كأوربى معجب بكل ماله طابع شرقى . وإن كان ذا فضل ففضله أنه حدثنا عما دار خارج المسجد حديثاً نكتفى به فى هذا الصدد . وفى الوقت عينه حفزنا إلى الرغبة فى معرفة ما كان يدور فى داخله.

وإن تلميحه إلى ماكان من أمر السلطان عبد الحميد ليدفعنا إلى تقصى حقيقته ، ونحن نعتمد فى ذلك على كتاب بعنوان (عبد الحميد ظل الله) لنجد فيه وصفاً مجملا لما وقع . وفحوى قول الكاتبة أن عاهل الترك يوم الاحتفال بتملكه ، ظهر فى مسجد (بايزيد) وهو ذلك المسجد الذى كان سلاطين العهود الذهبية للهلال ينالون البركة الإلهية فيه ويقلدون سيف عثمان مؤسس دولتهم على أنه رمز إلى أنهم سوف يعزون به الإسلام وينشرونه فى الآفاق ولهم فى ذلك ثواب الجنة . وقد بدا عبد الحميد نحيلا شاحباً جهم الوجه كريه الطلعة ، وخطا نحو الشيخ سبع خطوات تقليدية ، وهو شيخ دراويش قونيه ليقلده السيف ويقبل كتفه اليسرى . ثم خطا ثلاث خطوات نحو الصدر الأعظم الذى يمثل الشعب ، حتى يقبل الشعب فى شخص الصدر الأعظم طرف ردائه . وما حضر هذا الحفل إلا الوزراء والعلماء ورجال الدين . وقد خيم السكون على المسجد إلا من حفيف أجنحة حمائم تهفو فى جو صحنه.

وبعد انتهاء الحفل ركب السلطان فى موكبه ، غير أن الواقفين على جانبى الطريق لمشاهدته كانوا قلة ، وكثير من النوافذ المطلة عليه كانت مغلقة . وما ذلك إلا لأن الشعب التركى استقبل سلطنة عبد الحميد بفتور وضعف ثقة وكانت قلوب الترك مع سلفه السلطان مراد الذى اعتزل لمرضه ، وتعهد عبد الحميد قبل أن يمتلك بالتنازل له تواً إذا أبلّ واستطاع أن يلبى الأمر من بعد[(١)].

ويؤخذ على الكاتبة أنها تجافت عن الصواب فى قولها إن السلطان عبد الحميد تقلد سيف عثمان فى مسجد بايزيد ، والصحيح أن هذا المسجد هو مسجد أبى أيوب.

ومن الباحثين من تصدى لجارى عادة سلاطين آل عثمان فى تقلد السيف يوم اعتلاء العرش . وحاول أن يرد تلك العادة إلى سابقة تشبهها . فقال ما يتلخص فى أنه فى عام ١٣٤٢ ميلادية اتفق للسلطان المنصور آخر سلاطين دولة المماليك البحرية أن جلس على العرش بالقاهرة كما تولى الخلافة أحمد التاسع وكان ذلك فى اليوم نفسه . وتلا الخليفة خطبته ودعا فيها بالخيرات والبركات للسلطان الجديد ، ثم خلع عليه ثوبا أسود وقلده سيفا

(1) Alma Wittilin (T) Denny : Abdul Hamid the Shadow of God. pp. 89, 90, 91 (London 1940).

عربيا . وتلك هى المرة الأولى التى يتقلد السيف عاهل مسلم ، وقد انتقلت هذه العادة إلى سلاطين العثمانيين . وقال بعد ذلك إنه لا يستطيع شرحا واضحاً لهذا ولا لاشتراك چلبى افندى رئيس الدراويش المولوية فى هذا الحفل(١) .

وهذا من كلامه يتغلغل بنا إلى ضرورة التعقيب عليه بكلمة ، فمن قبيل الرجم بالغيب أن نرد عادة سلاطين العثمانيين إلى تقلد السيف فى مسجد أبى أيوب إلى ما وقع لسلطان مصر . أما قوله إنه لا يفهم معنى لتقلد السيف فحكم له على نفسه بأنه يكتفى بالتظنن وضحالة التفكير ، كما أنه لا يتكلف مشقة إمعان النظر لتجاوز رمزية الظاهر إلى واقع الباطن . فالحسام رمز القوة التى تحمى الملك وتدفع عادية المغيرين عليه والطامعين فى امتلاكه ، ولقد عرفنا الجهاد دعامة سادسة من دعائم الإسلام ، ولولاه لما قام له عمود ولا حفظ له كيان ولا شاع فى أرض الله شرقاً وغرباً .

ورمزية السيف لا حاجة فيها إلى دليل ، ونضرب مثلا بمن تسمى شرف النساء وهى حفيدة أحد حكام الهند على عهد الإمبراطور المغولى بهادر خان وكانت تقية إلى أبعد الغايات، ويقال إنها أقامت فى قصرها منصة لتتلو القرآن عليها كل صباح وإلى جانبها سيف، وأوصت بدفنها بعد موتها مع مصحفها وسيفها.

أما دافعها إلى ذلك فهو أن طائفة السيخ حاربت المسلمين فى إقليم البنجاب(٢) .

وقد ذكرها محمد إقبال فى فصل من كتابه المنظوم جاويد نامه بما ترجمناه بقولنا(٣) .

تقرأ القــرآن نفســا طهــرت	برهـــة فى تركـــه ما فكـرت
تحمل المصحف والسيف الحساما	إنها السكرى وما ذاقت مدامـــا
خلوة سيـــف وقــرآن الصلاة	حبـذا عمر تقـضى فى التقـــاة

أما اشتراك رئيس الدراويش المولوية ، فمعناه جَلِىٌّ بيّن لا حاجة فيه إلى تفسير ولا تأويل ، فدراويش المولوية ينتسبون إلى جلال الدين الرومى ذلك الصوفى الفارسى الأعظم الذى نزح عن بلاده ليقيم بقونية فى الأناضول ويذيع فى الترك مذهبه الصوفى الذى أثر فى مظاهر الحياة التركية أيما تأثير .

---

(1) Aktchouran : Essai sur L'Histoire des Institutions de L'Empire Ottoman, pp. 101, 102 (Paris).

(٢) د. حسين مجيب المصرى : فى السماء ، ص٢٤٤ (القاهرة ١٩٧٣).

(٣)
تا زقرآن پـاك مى سـوزد وجـود	ازتـلاوت يك نفـس فـارغ نبـود
دركمـر تيـغ دورو قـرآن بدسـت	تن بـدن هـوش وحواس الله مـست
خلـوت وشمـشير وقـرآن ونمـاز	أى خوش آن عمرى كه رفت اندرنياز

وكان المنحدرون من أسرة جلال الدين الرومى موضع إجلال وتوقير، ولهم الفضل فى نشأة الشعر التركى وأصول التصوف ، كما تصدروا للوعظ والإرشاد كشيوخ للطريقة، وقد توارث هذا المنصب ثلاثون شيخاً منهم(١).

وإن كان هذا هو شأن جلال الدين الرومى ، وكانت تلك منزلة من خلفوه فى علو منزلته عند الترك ، فلا بدع أن يكون اشتراكه فى تنصيب السلطان مظهراً لإعلاء شأن الدين ورمزاً يعد دليلا أكيداً على اعتزاز الترك بالدين الحنيف ونظرهم إليه قواما للسلطنة ، ونوراً يهدى لما يصلح به دينهم ودنياهم.

ومن الكتاب من يتلمس فى تاريخ العثمانيين سابقة بينها وبين الاحتفال بتنصيب السلاطين شبه أو بعض شبه ، فيقول إن السلطان عثمان الأول قبل تأسيسه لدولته اتسع فى الفتح حتى غلب الروم فى آسيا الصغرى على عدة مدن كمدينة بروسة ، غير أن انتصاره لم يكن لينسيه قدر نفسه ، فبعث وفدا إلى السلطان علاء الدين السلجوقى يعبر عن رغبته فى أن يكون معه على وفاق . ورد عليه علاء الدين بأنه لا يرى بأسا فى أن يغنم من الروم ما يغنم . وأراد هذا السلطان أن يعبر عن رضاه ، فأوفد عليه جلال الدين الرومى شيخ الدراويش المولوية وهو يحمل معه سيفا ليقدمه هدية إليه .

كما قيل إن السلطان بايزيد الأول الذى كان له الملك فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى قدم سيفه إلى صهره ليحمله ، وكان يدعى أمير سلطان ، وأمير سلطان من ألقاب شيخ المولوية .

وهذا كله من نسج الخيال ، وإنما أريد به إعلاء شأن آل عثمان فى آسيا الصغرى ، حين كان علاء الدين من أبطال القصص ، كما كان رغبة فى تمجيد الطريقة المولوية باستانبول(٢).

وعلى هذا النحو حاول بعضهم تفسير الحقيقة بالخيال فى تحكم وتعسف ، وعادوا إلى الماضى على غير هدى طالبين فى الإبهام والظلام أساساً واهياً لما تكشف عنه الزمان بعد تراخى الأيام ، فكان كلامهم عن اليقين أبعد مايكون .

وهنا حقيقة لابد من وقفة عندها لتكون أحكامنا أقرب إلى الجامع المانع، فالمعهود فى مألوف سلاطين العثمانيين ، أن يكون تنصيبهم فى مسجد أبى أيوب .

وهذا نعيما المؤرخ التركى القديم الذى عاش فى القرن السابع عشر، وله تاريخ

---

(١) فروزان فر : مولانا جلال الدين محمد ، ص١٨٠ (تهران ١٣١٥).

(1) Hasluck : Christianity and Islam under the Sultans pp. 605, 667. Volume 2 (Oxford 1929)

مشهور يمكن القول إننا لا نملك تاريخاً أصدق منه وصفاً لزمانه[١]. يحدثنا عن تولى السلطان مصطفى بقوله إن السلطان الجديد طبقاً للقانون مضى إلى الضريح المطهر لمضيف حبيب البارى أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ وهناك تقلد السيف ومعه الأعيان والأركان، وزار أضرحة أجداده الكرام ، ووزعت الصدقات وقدمت القرابين ، ثم زفت بشرى جلوسه على العرش إلى أطراف العالم[٢]. وكلام هذا المؤرخ صريح فى وجوب تنصيب السلطان فى مسجد أبى أيوب على أنه قانون ملزم . كما أن اقتران اسم أبى أيوب بأنه مضيف الرسول ﷺ تأييد لإعزاز الترك وإكبارهم لهذا الصحابى الذى ضيف النبى ﷺ ، فما وجدوا مسجداً آخر خيراً من مسجده للاحتفال بأعظم مناسبة عندهم وهى تولى سلاطينهم ، ثم إشارته إلى توزيع الصدقات مما يضفى على هذا الاحتفال نزعة روحية إلى البر وابتغاء مرضاة الله . وزيارة السلطان لقبور بعض العظماء من أسلافه، رغبة فى تذكيره بهم ليتلو تلوهم ويكون الأمين على وديعتهم.

ومن الباحثين من ميّز بين الاحتفال فى مسجد أبى أيوب على النحو المعلوم ، وتقلد السيف يوم تولى السلطنة ، فقال إن الاحتفال فى مسجد أبى أيوب كان عادة سنّها محمد الفاتح، ولكن يحتمل أن يكون تقلد السيف أمراً معروفاً من قبل فى مدينة بروسه وأدرنه.

ولكن هذا الباحث لم يتجاوز هذا الإجمال إلى تفصيل ولا ضرب لذلك مثلا، مما يستوجب منا أن نتحفظ فى تلقى قوله دون تأييد ولا تفنيد لأن الاحتمال يحتمل الشك. غير أنه يضيف إلى ذلك أن أحمد الثانى ومصطفى الثانى وأحمد الثالث وهم الذين تولوا بين عام ١٦٩١ و ١٧٠٣ كان الاحتفال بجلوسهم على العرش فى قصرهم بمدينة أدرنه، ثم يقول إن أحمد الثانى ومصطفى الأول تقلدا السيف فى مسجد يعرف بـ (اسكى جامع) [٣].

وذلك ماندرك منه التفرقة بين الاحتفال وبين تقلد السيف ، والخروج على المألوف أحيانًا بعدم إقامة الاحتفال فى مسجد أبى أيوب. كما قيل إن السيف كان يختار من بين عدة سيوف وهى سيف النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وخالد بن الوليد ، وعمر بن الخطاب من العرب وسيف السلطان عثمان الأول والسلطان سليم الأول من الترك.

ومن مستطرف ما يذكر أنه فى عام ١٨٠٨ م تقلد السلطان محمود الثانى سيفين فى وقت معاً وهما سيف النبى على الجانب الأيمن وسيف السلطان عثمان على جانبه الأيسر.

(١) كوپريلى زاده محمد فؤاد ، شهاب الدين سليمان : يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى ، ص٣٨٥ برنجى جلد (استانبول١٢٣٢)..

(٢) نعيما : تاريخ نعيما ، ص١٥٩ ايكنجى جلد (استانبول).

(3) Alderson : The Structure of the Ottoman Dyassty. p. 41 (Oxford 1956)

أما إذا كان الشاذ برهاناً للقاعدة مؤيدا لوجوب الأخذ بها والثبات عليها فكل ما خرج على المعهود الذى نألفه ، لا يخرج بنا عن صددنا ولا يغير شيئاً فى رأينا ، بل على النقيض من ذلك يقيم الحجة على أن سلاطين العثمانيين كانوا يقيمون حفلا يسمى تقليد السيف يوم تملكهم ، وأصبح ذلك دأباً لهم وحقيقة فى تاريخهم ، مما جعل من مسجد أبى أيوب سمة مشرقة فى قوميتهم الإسلامية.

ولنرمق الضريح والمسجد وما حولهما بنظرة أخيرة ، وهى النظرة التى ألقاها الرحالة التركى القديم اوليا چلبى فى القرن السابع عشر فقال إن الفاتح أقام هذا المسجد ووهب ثوابه لأبى أيوب . وقد سويت الأرض على شاطئ البحر قريباً من عتبته ، وله محراب ذو قبة وفى طرفه نصف قبة ، غير أنها ليست عظيمة الارتفاع ، ولا وجود فى المسجد لعمود ، ومحفل السلطان فى الطرف الأيمن ، وعلى باب القبلة لوحة من رخام رقم فيها بخط جلى هذا التاريخ (حمداً لله أصبح هذا البيت معموراً) وله منارتان إحداهما فى الجانب الأيمن والأخرى فى الجانب الأيسر . وأطراف حرمه الثلاثة محاطة بحجرات.

وفى الوسط مقصورة المصلين، وبين المقصورة وقبر أبى أيوب دوحتان فرعهما فى السماء يتعبد المتعبدون فى ظلهما، وفى طرفى حرم المسجد صنابير للوضوء. وفى استانبول ألف وثمانون مسجداً غير هذا المسجد. وإلى جانبه مدرسة أبى أيوب وأكثر من دار للحديث، ودار للقراء، ومكتب للصبيان، وعدة زوايا وخانات، ومبرة يصيب من خيرها ونعيمها الرائح والغادى. وإلى جوار تلك الأبنية حمام أيوب الذى ابتناه السلطان أبو الفتح. وهو من قسمين أحدهما خاص بالرجال والآخر للنساء. وماؤه عذب زلال يرشفه المرضى فيمسح الله ما بهم بأنفاس أبى الفتح كما أقام السلطان أحمد فى حرم أيوب سبيلا.

يبسط اوليا چلبى كلامه ليقول إن مدينة أيوب طيبة الهواء، يقطنها كثير من أعيان القوم وأشرافهم بيد أن معظمهم من العلماء ، إلى أن يقول إن الطير التى يعرف الواحد منها بمالك الحزين تعتش فى شجرات حرم المسجد وتؤثر قبته فى رأس كل عام بريشتين من ريشها تهديهما إليها [1]. ومن هذا الوصف المفصل المفاض فيه ، نسترشد لذلك المدى البعيد الذى بلغه مسجد أبى أيوب وضريحه عند الترك من عظم الشأن وجلالة القدر وعلو المنزلة، فقد أحيط بأبنية للخير والبر أفضت إلى وجود محلة أو بلدة قائمة بنفسها متصفة بالخاص من سماتها، تهفو إليها أرواح المؤمنين منذ أعوام خمسمائة وتغمرها إشراقة للإيمان ما غابت قط عنها ولن تغيب أبداً.

---

(١) اوليا چلبى : اوليا سياحتنامه سى ص ٣٩٦ و ٣٩٧ و ٤٠٠ برنجى جلد (استانبول ١٣١٤).

مراجع البحث

المراجع الشرقية

فى العربية :

ابن الأثير : تاريخ الكامل (القاهرة).

ابن الجوزى : تلبيس إبليس (القاهرة ١٣٦٨).

ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح (القاهرة ١٩٣١).

ابن العماد : شذرات الذهب (القاهرة ١٣٥٠).

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٣٠).

ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة (القاهرة ١٩٣٩).

ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون (القاهرة ١٩٣٠).

ابن طباطبا : الفخرى (القاهرة ١٩٢٧).

ابن عبد البر : الاستيعاب (القاهرة ١٩٥٣).

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (ليدن ١٩٢٠).

ابن عبد ربه : العقد الفريد (القاهرة ١٩٢٨).

ابن عطاء السكندرى : تاج العروس (القاهرة ١٣٥٣).

ابن قتيبة : عيون الأخبار (القاهرة ١٩٣٠).

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة القاهرة).

ابن قتيبة : المعارف (القاهرة ١٩٣٤).

ابن كثير : البداية والنهاية (بيروت ١٩٦٦).

ابن هشام : سيرة ابن هشام (القاهرة ١٣٢٢).

أبو حيان التوحيدى : البصائر والذخائر (القاهرة ١٩٥٣).

أبو نعيم : حلية الأولياء (القاهرة ١٩٣٢).

أحمد تيمور : الآثار النبوية (القاهرة ١٩٥٥).

أسامة بن منقذ : لباب الآداب (القاهرة).

إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار (بولاق ١٣١٤).

الأشعرى : مقالات الإسلاميين (القاهرة ١٩٥٠).

البغدادى : تاريخ بغداد (القاهرة ١٩٣١).
البلاذرى : فتوح البلدان (القاهرة ١٩٣٢).
البيضاوى : تفسير البيضاوى (القاهرة ١٩٤٧).
التنوخى : الفرج بعد الشدة (القاهرة ١٩٥٥).
الخازن : تفسير الخازن (القاهرة ١٩٢٨).
الخوارزمى : مفيد العلوم (القاهرة ١٩٠٩).
الدينورى : الأخبار الطوال (القاهرة ١٣٣٠).
الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن (القاهرة).
الزركلى : الأعلام (القاهرة ١٩٢٨).
السيوطى : حسن المحاضرة (القاهرة ١٣٢١).
السيوطى : إسعاف المبطأ برجال الموطأ (القاهرة).
السيوطى : تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٩٥٢).
العقاد : عبقرية خالد (القاهرة ١٩٧١).
السيد هاشم معروف : عقيدة الشيعة الإمامية (بيروت ١٩٥٦).
الطبرى : تاريخ الطبرى (القاهرة ١٩٣٤).
القاضى عياض : الشفاء (القاهرة ١٣١٨).
الكندى : ولاة مصر (بيروت ١٩٥٩).
المحب الطبرى : الرياض النضرة (القاهرة).
المسعودى : مروج الذهب (القاهرة ١٣٤٦).
المقدسى : البدء والتاريخ (باريز ١٩٠٧).
المقريزى : النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم (القاهرة).
المقريزى : إمتاع الأسماع (القاهرة ١٩٤١).
المناوى : جمع الوسائل فى شرح الشمائل (القاهرة ١٣١٧).
النسفى : تفسير القرآن الجليل (القاهرة ١٩٣٦).
النعمان عبد المتعال القاضى : شعر الفتوح الإسلامية (القاهرة ١٩٦٥).
النووى : رياض الصالحين (القاهرة ١٩٣٩).
الواقدى : الطبقات الكبرى (ليدن ١٣٢١).

أمين الخولى : الجندية والسلم (القاهرة ١٩٦٠).
جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى : تفسير الجلالين (القاهرة ١٣٢٦).
جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين (القاهرة ١٩٦٣).
د. حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر (القاهرة ١٩٣٢).
د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى (القاهرة ١٩٣٥).
د. حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى (القاهرة ١٩٥١).
د، حسين مجيب المصرى : فى الأدب الإسلامى (القاهرة ١٩٦٧).
د. حسين مجيب المصرى : فى الأدب العربى والتركى (القاهرة ١٩٦٢).
خالد محمد خالد : رجال حول الرسول (القاهرة ١٩٦٦).
رشيد رضا : تفسير المنار (القاهرة ١٣٦٦).
سليمان الندوى : دفاع عن الحديث الشريف (القاهرة).
د. زكى مبارك : المدائح النبوية فى الشعر العربى (القاهرة ١٩٣٥).
طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية على هامش وفيات الأعيان لابن خلكان (القاهرة ١٢٩٩).
على بن أبى طالب : نهج البلاغة (القاهرة).
محمد أبو زهرة : العلاقات الدولية فى الإسلام (القاهرة ١٩٦٤).
محمد إسماعيل إبراهيم : الجهاد فى الإسلام (القاهرة ١٩٦٤).
محمد إقبال (ت) د. حسين مجيب المصرى : فى السماء (القاهرة ١٩٧٣).
محمد الغزالى : التعصب والتسامح (القاهرة).
محمد جميل بيهم : فلسفة تاريخ رسول الله ﷺ (بيروت).
د. محمد حسين هيكل : حياة محمد (القاهرة ١٣٥٤).
محمد رضا المظفر : عقائد الشيعة (النجف ١٩٥٤).
محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية (القاهرة ١٩١٢).
مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن (القاهرة ١٩٢٨).
نشوان الحمرى : ملوك حمير وأقيال اليمن (القاهرة ١٣٧٨).
نصر الله خليفة : حديث الإفك (القاهرة).
ياقوت : معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦).

في التركية :

أحمد راسم : عثمانلى تاريخى (استانبول ١٣٣٠).

Agah Sirri. Nabin'in Surnamasi. (Istanbul 1941).

Anhegger : Eyyubi'nin Manakib -i- Sultan Suleyman. (Tarih Dergisi, Eylul (Istanbul 1949).

اوليا چلبى : اوليا چلبى سياحت نامه سى (استانبول ١٣١٤).

Ayverdi : Fatih Devri Mimarisi (Istanbul 1953).

بروسه لى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى (استانبول)

Cemal Ogut : Meshur Eyyub Sultan (Istanbul 1957).

جودت : قصص أنبيا (استانبول ١٣٠٠).

د. رضا نور : تورك تاريخى (استانبول ١٩٢٤).

Suheyl Unver : Fatih Kuliesi ve Zamani Ilim Hayati. (Istanbul 1946).

Suleyman Celebi : Mevlid (Istanbul 1954).

Kocaturk : Osmanli Padisahlari. (Istanbul)

Kocaturk : Turk Edebiyati Tarihi. (Istanbul 1964).

كوپريلى زاده محمد فؤاد : تورك ادبياتى تاريخى (استانبول ١٩٢٦).

كوپريلى زاده محمد فؤاد ، شهاب الدين سليمان : يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى (استانبول ١٢٣٢)

لامعى . ترجمة نفحات الأنس لـ «عبد الرحمن الجامى» (استانبول).

Mehmed Akif : Safahat. (Istanbul 1944).

معلم ناجى : اسامى (استانبول ١٣٠٨).

مولانا محمد نشرى : جهاننما (لاپيچك ١٩٥١).

نعيما : تاريخ نعيما (استانبول).

وهبى : ديوان وهبى (بولاق ١٢٥٣).

في الفارسية :

الهجويرى : كشف المحجوب (إيران ١٣٣٦).

أمير عنصر المعالى : قابو سنامه (ليدن ١٩٥١).
پرويز خانلرى : سپاه وجنك . فردوسى نامه (تهران).
جامى : شواهد النبوه (بمبى ١٣٠٣).
چانتاى (ت) نوروزى : فرهنك اسلامى درنواحى (ترك لشين).
حسين جاجا دييننكرات : اسلام صراط مستقيم (تبريز ١٩٥٨).
خواندامير : حبيب السير (تهران ١٣٣٣).
سعدى : كلستان سعدى (تهران ١٣١٠).
د. شفق : تاريخ ادبيات ايران (طهران ١٣٢١).
عطار : منطق الطير (أصفهان ١٣٣٤).
فروزان فر : مولانا جلال الدين محمد (تهران ١٣١٥).
د. قاسم غنى : تاريخ تصوف دراسلام (طهران ١٣٢٢).
مالى (ت) سروش : حيات سعدى (إيران ١٣١٦).
محمد على خليلى : زند كانى محمد پيغمبر اسلام (تهران ١٣٣٧).
محمود شهابى : ادوار فقه (تهران ١٣٢٨).

المراجع الأوربية

في الفرنسية :

Aktchouran : Essai sur L'Histoire des Institutions de L'Empire Ottoman. (Paris.).

Dermenghem : La Vie de Mahomet (Paris 1929)

Jonanin,Van Gaver : Turquie. (Paris MDccccxl)

Lammens : L'Islam,Croyances et Istitutions (Beyrouth 1920)

Lammens : Etudes sur Le Regne du Calife Omaiyade Mo'awia. (Beyrouth 1906).

Loti : Aziyade (Paris).

Mantran : L'Expansion Musulamane (Paris 1969).

في الإنجليزية :

Alderson : The Structure of the Ottoman Dynasty. (Oxford 1956).

Alma Wittilin (T) Denny : Abdul Hamid the Shadow of God. (London 1940).

Ameer Ali : A Short History of the Saracens. (London 1949).

Ameer Ali : The Spirit of Islam. (London 1922).

Arnold : The Preaching of Islam. (London 1935).

Browne : A Literary History of Persia (Cambridge 1929).

Cash : The Expansion of Islam. (London 1928).

Davey : The Sultan and his Subjects. (London 1907).

Gibb : A History of Ottoman Poetry. (London 1904).

Guillaume : The Traditions of Islam. (London 1924).

Hasluck : Christianity and Islam under the Sultans (London 1929).

Ikbal Ali Shah : Mohamed the Prophet (London 1938).

Levi Provencal : The Encyclopaedia of Islam. (London 1960).

Luke : The City of the Dancing Dervishes. (London 1910).

Mijatovich : The Conquest of Costantinople by the Turks. (London 1892).
Monroe : Turkey and the Turks. (London MDccccvIII.
Mordtmanu : The Encyclopaedia of Islam (London 1960).
Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall. (London 1924).
Penzer : The Harem. (Edinburgh 1935).
Servier (T) Mors-Blundell : Islam and the Psychology of the Musulman. (London 1924).
Wittek : The Rise of the Ottoman Empire. (London 1938).

في الألمانية :

Babinger : Mehmed der Eroberer und seine Zeit (Munchen 1935).
Hachtmann : Europaische Einflusse in der Turkei (Berlin 1916).
Hammer Purgstall : Geschichte des osmanischen Reiches. (Graz 1963).
Menzel : Die turkische Literatur, Die orientalischen Literaturen (Berlin 1925).
Schneider : Die Blachernen Oriens. (Leiden 1951).

في الإيطالية :

Bombaci : Storia della Letteratura turca . (Milano 1956).
Pareja : Islamologia. (Roma 1951).

الفهـرس

الصفحة

تعد مؤلفات رائد الأدب الإسلامى المقارن فى العالم العربى، الدكتور حسين مجيب المصرى من المصادر والمراجع الأهم فى بابها. وتقديرا من **الدار الثقافية للنشر** بالقاهرة لحجم الإنجاز العلمى الذى قدمه هذا الرائد الكبير فإنها تعيد إصدار مؤلفاته التى استغرق إعدادها ما يزيد على ستين عاما من العمل الدءوب والجهد المخلص. وقد اعتمد فى تأليفها على مراجع لا تحصى فى تسع لغات، أربع منها شرقية، وخمس أوربية، وعقد المقارنات والموازنات بين آداب الشعوب الإسلامية: العربية والتركية والفارسية والأوردية، مما اقتضى منه الخوض فى مختلف التيارات الروحية والأدبية والاجتماعية فى إطار تاريخى يجمع شتاتها ويشكل منها نسقا معرفيا جديدا وفريدا، لا نبالغ إذا اعتبرناه واحدا من أسس الوحدة الثقافية المنشودة بين الشعوب الإسلامية.

وهذا الكتاب

أبو أيوب الأنصارى

هو حبة من حبات هذا العقد الثمين من الدراسات الإسلامية المقارنة؛ فهو دراسة عميقة لشخصية هذا الصحابى الجليل كظاهرة تتجلى فيها وشائج الصلة الثقافية بين العرب والترك، وكأن المؤلف أراد أن يخرج على القارئ العربى بهذه الدراسة كعلم لا عهد له به من قبل ومنهج لم يألفه؛ فسوف يجد أنه تلقاء بحث حاول فيه صاحبه أن يحيط علما بكل شاردة وواردة لها دخل فى تراث شعوب الإسلام.